

رواية

حين عاد الماء



في مدارج

حين عاد الماء

رواية

== مدارج

إهداء

إلى من أخفى حقيقةً صغيرةً لأنه خشي غضب من يحب، ثم
كبرت الحقيقة في صدره حتى لم يعد يعرف كيف يقولها.

وإلى من ظن أن القوة في أن يكون صوته آخر صوت، ثم
اكتشف أن بعض القلوب لا تفتح أبوابها إلا لمن يقدر على
الإصغاء.

نهديك هذه الرواية برجاء أن تجد فيها ما يعينك على التثبت حين
يشتد الغضب، وعلى العدل حين يكون خصمك بين يديك، وعلى
الاعتراف حين لا يعيد الاعتراف ما مضى، لكنه يمنع ظلمًا
جديدًا.

وحين تدعو لنفسك بقلب هادئ ولسان صادق، فاذكرونا بدعوة؛
لنا ولوالدينا، ولكل من أعان على وصول هذه الصفحات إليك.
نسأل الله أن يرزقنا وإياك قوةً لا تظلم، وحلمًا لا يضعف، وصدقًا
يرد الحقوق إلى أهلها.

جهدٌ مشتركٌ، نسأل الله فيه الإخلاص والقبول.

المحتويات

٦	الجزء الأول: عودة النهر
٧	الفصل الأول: الصوت الذي سبق الماء
١٦	الفصل الثاني: غرفة الطوارئ
٢٦	الفصل الثالث: قبل الصفارات
٣٣	الفصل الرابع: الرجل الذي لا ينبغي أن يعود
٤٢	الفصل الخامس: ست دقائق
٥٢	الفصل السادس: الحي المنخفض
٦١	الفصل السابع: الصفحة السابعة عشرة
٧٣	الجزء الثاني: ما أخرجه الماء
٧٤	الفصل الثامن: ما أخفته الشاشة
٨٠	الفصل التاسع: المسار الثالث
٨٧	الفصل العاشر: الباب الذي يحمل اسمه

المحتويات — تمة

٩٤	الفصل الحادي عشر: البيت ذو الباب الأخضر
١١١	الفصل الثاني عشر: التسجيل المكسور
١١٨	الفصل الثالث عشر: خمسة عشر عاماً لكريم
١٢٨	الفصل الرابع عشر: أمام بيت كريم
١٣٩	الفصل الخامس عشر: الصوت الآخر في الخط
١٤٥	الجزء الثالث: ليلة السد
١٤٦	الفصل السادس عشر: لماذا دخل سامي
١٥١	الفصل السابع عشر: آخر مكالمة عادية
١٥٦	الفصل الثامن عشر: ثلاث بوابات
١٧٢	الفصل التاسع عشر: قراءة ليان
١٧٦	الفصل العشرون: المحاولة الأولى
١٨٢	الفصل الحادي والعشرون: فريق الممر

المحتويات — تمة

١٩٢	الفصل الثاني والعشرون: العجلة العالقة
١٩٩	الفصل الثالث والعشرون: أربعة وخمسون شخصاً
٢٠٥	الفصل الرابع والعشرون: إطلاق الماء
٢١٥	الجزء الرابع: ما بقي بعد الماء
٢١٦	الفصل الخامس والعشرون: الفجر
٢٢٤	الفصل السادس والعشرون: التقرير
٢٢٨	الفصل السابع والعشرون: شهادة فؤاد
٢٣٤	الفصل الثامن والعشرون: التحقيق
٢٣٨	الفصل التاسع والعشرون: بيت كريم بعد الماء
٢٤٣	الفصل الثلاثون: الاسم المستعاد
٢٥١	الفصل الحادي والثلاثون: سر آدم
٢٥٩	الفصل الثاني والثلاثون: بعد مئة يوم

الجزء الأول

عودة النهر

الصوت الذي سبق الماء

عاد الماء إلى رواسي صوتاً قبل أن يعود منظرًا.

في الرابعة وسبع عشرة دقيقة من مساء ذلك اليوم، سمع الصبية الواقفون في مجرى السرو الجاف حفيفاً يشبه جرّ كيس ثقيل فوق الحصى. خفتت ضحكاتهم لحظة، ثم عاد أحدهم إلى تصوير زملائه وهم يركضون بين الأعمدة الخرسانية للجسر القديم. لم يكن في المجرى ما يستحق الخوف. منذ اثني عشر عاماً لم يمر فيه غير الغبار، وأوراق الصحف، وظلال الناس الذين اختصروا الطريق إلى السوق.

تحت الجسر، تحركت حصاة صغيرة وحدها.

ثم تحركت أخرى.

رفع الصبي هاتفه إلى أعلى. كان يريد أن يلتقط أول صورة للماء حين يظهر، فقد انتشرت منذ الصباح أخبار العاصفة التي ضربت الجبال البعيدة. وعده أصدقاؤه بأن مقطعه سيصل إلى كل بيت في المدينة. لم يتخيل أحد منهم أن الماء لا يصل دائماً من الجهة التي ينتظرها الناس، ولا بالسرعة التي تمنحهم وقتاً للفرح.

كان مالك نصار يعبر الجسر بسيارته حين رأى الطيور تنهض من
المجرى دفعة واحدة.

لم ير الماء بعد. رأى الغبار يتقدم في خط طويل، ورأى الصبية
يلتفتون إلى الصوت ثم يضحكون. ضغط المكابح حتى انحرفت
السيارة قليلاً، وفتح الباب قبل أن يتوقف المحرك.

صاح من أعلى السور:

— اخرجوا من المجرى!

لم يسمعه، أو لم يفهموا لماذا يصرخ رجل يرتدي قميصاً أبيض
وربطة عنق في عصرٍ انتظرت فيه المدينة المطر كما ينتظر المريض
خبيراً طيباً. لوح لهم بيديه، ثم أخرج هاتفه واتصل بغرفة تشغيل
السد.

أجابته ليان الديب، زوجة فارس وكبيرة مهندسي الأنظمة في
الهيئة، من الرنة الأولى.

— أين أنت؟

— عند محطة القياس العليا. فقدنا الإشارة قبل ثلاث دقائق.

— مستوى الخزان؟

ترددت نصف ثانية. كان يعرف ترددها؛ ليس تردد من يجهل الجواب، بل من يحاول أن يختار العبارة التي لا تستفزه.

— الشاشة المركزية تقول واحداً وسبعين في المئة. الحساس الاحتياطي يقول أكثر من ثمانين، لكنه غير مستقر.

— كم أكثر؟

— لا أستطيع أن أؤكد قبل المعايرة.

مرّ الصوت مرة أخرى تحت الجسر. هذه المرة سمعه مالك بوضوح. لم يعد خفيفاً. صار خشخشة عميقة تتصاعد من الأرض، كأن المجرى نفسه يستيقظ.

قال:

— شغلي كاميرا الوادي التاسعة.

— لا تصلنا صورة.

— الثامنة.

— متوقفة منذ انقطاع الكهرباء في المحطة الشرقية.

— السابعة؟

— تعمل. لحظة.

سمع أصابعها على لوحة المفاتيح، ثم سمع أنفاسها تتغير.

— أستاذ مالك...

كره أن تناديه بلقبه حين تخاف.

— تكلمي.

— المجرى ممتلئ عند الكيلومتر سبعة عشر.

نظر إلى أسفل. ظهر أول الماء من وراء انحناءة الجسر، لا في صورة موجة زرقاء، بل جبهة بنية تحمل أغصاناً سوداء وأكياساً وصخوراً صغيرة تندرج أمامها. كان الصبية قد رأوه أخيراً. رفع اثنان منهم هواتفهما، وبقي ثالث واقفاً في المنتصف كأنه ينتظر اللحظة التي حلم بتصويرها.

قفز مالك درجات السلم الحديدي المؤدي إلى المجرى درجتين درجتين. لم يفكر في بدلته ولا في الحذاء الذي انغرس في التراب. ركض نحو الصبية وهو يشير إلى السلام في الجهة الأخرى.

— فوق! الآن!

تحرك اثنان. أما الثالث فظل يصور، وقد اتسعت عيناه أمام الماء القادم. أمسكه مالك من ذراعه، وانتزع الهاتف من يده دون قصد، ثم دفعه نحو السلم. صعد الصبي وهو يحتج، لكن احتجاجه ضاع في صوت الحجارة.

بلغوا الرصيف حين اجتازت الجبهة البنية الموضع الذي كانوا يقفون فيه. لم يكن ارتفاعها أكثر من نصف متر، لكنها ضربت أعمدة الجسر بقوة جعلت الحديد يرتج. خلال ثوانٍ، صار الجرى الذي عرفه أهل رواسي طريقاً تريباً نهراً سريعاً.

وقف الناس فوق الجسر يصفقون.

خرج أصحاب المتاجر. تعالت التكبيرات من جهة السوق، وأخذت الهواتف تلتقط الماء من كل زاوية. إحدى الأمهات المسنات بكت وهي تقول إن المدينة لم تر هذا المشهد منذ طفولة أبنائها. رجل فتح زجاجة ماء ورش منها على وجهه ضاحكاً. لم يكن أحد يرى ما يراه مالك: سرعة الجبهة، لون الطمي، وجذع الشجرة الذي دار حول العمود ثم انكسر إلى نصفين.

عاد الهاتف إلى أذنه.

قالت ليان:

— الانسياب المتوقع من المحطة العليا لا يصنع هذه السرعة.

— أعرف.

— إن كانت القراءة الاحتياطية صحيحة...

قاطعها:

— اتصلي بفارس. أريد غرفة الطوارئ كاملة خلال عشر دقائق.
شغلي صفارات المجرى، واطلبي من الشرطة إخلاء كل الممرات
حتى الحي المنخفض.

— رئيس البلدية لم يعلن حالة الطوارئ بعد.

— أنا أعلنتها الآن.

صمت لحظة، ثم قالت:

— سيسألون على أي قراءة بنيت القرار.

نظر مالك إلى الماء. كان يرتفع أمام عينيه، سنتيمتراً بعد سنتيمتر،
ويلتهم آثار الأقدام التي بقيت في الوحل القديم.

— قولي لهم إن السد لا يحتاج إلى إذن كي يفشل.

أنهى المكالمة، فوجد الصبي الذي أنقذه واقفاً قرب، يمد إليه هاتفه
وقد انشق زجاجه.

— كسرتة.

نظر مالك إلى الشاشة. كان التسجيل لا يزال يعمل. ظهرت فيه
صورة السماء مقلوبة، ثم صوته وهو يصرخ، ثم اندفاع الماء. في
آخر ثانيتين، وقبل أن ينقطع التصوير، التقط الهاتف لوحةً صدئة

مثبتة على أحد الأعمدة: خط أزرق قديم، وتحتة رقم السنة التي مات فيها سامي.

أعاد مالك الهاتف إلى الصبي.

— ابتعد عن الجسر.

— لكن الناس كلهم هنا.

— لهذا بالضبط ابتعد.

رفع الصبي عينيه إليه، كأنه يريد أن يسأله لماذا يرتجف الرجل الذي لم يخفه الماء. لكن مالك كان قد استدار.

على امتداد المجرى، بدأت صفارات الإنذار تتكلم واحدة بعد أخرى. انقطع التصفيق ببطء. ظل بعض الناس يصورون، بينما أخذ آخرون يجمعون أبناءهم وينادون أسماء ضاعت وسط الضجيج.

قبل خمسة عشر عاماً، في الليلة التي مات فيها شقيقه، قال سامي جملةً سخر منها مالك طويلاً:

«الماء لا ينسى طريقه يا مالك. الناس هم الذين ينسون أنهم بنوا فوقه.»

لم يعرف مالك لماذا عادت الجملة كاملة الآن، بصوت أخيه كما لو أنه يقف خلفه. كان قد أمضى خمسة عشر عاماً يتجنب استعادة ذلك الصوت، ثم احتاج الماء إلى دقائق قليلة ليخرجه من المكان الذي دفنه فيه.

رفع رأسه نحو الجبال. لم تظهر القمم من وراء السحب. وكان البرق يتحرك داخلها من غير صوت، كضوء بعيد في غرفة مغلقة. رن هاتفه مرة أخرى.

هذه المرة كان فارس.

— وصلتنا قراءة يدوية من برج السد.

— كم؟

— ستة وثمانون في المئة، ويرتفع الخزان أسرع من أسوأ نموذج عندنا.

توقف مالك في منتصف الجسر.

— كم بقي قبل أن يبلغ الماء حافة التصريف؟

قال فارس:

- إذا بقي المعدل كما هو، أقل من خمس ساعات.
- ثم أضاف بصوت أخفض:
- وإذا زاد، فلن نملك الليل كله.

غرفة الطوارئ

كانت غرفة الطوارئ في الطابق الثالث من مبنى هيئة المياه، بلا نوافذ، ومع ذلك عرف كل من دخلها أن الظلام بدأ خارجها.

وصل مالك بعد تسع دقائق من اتصاله. كانت شاشات الجدار قد امتلأت بخرائط المطر، ومسارات الإخلاء، وصور كاميرات الطرق. دخل الموظفون تباعاً وهم يحملون أجهزة الحاسوب وأكواب القهوة ووجوهاً لم تستوعب بعد أن الليلة التي تدربوا عليها في المناورات وصلت أخيراً.

في صدر الغرفة، بدت خريطة رواسي كجسد مضاء من الداخل. خطوط زرقاء تقطع الأحياء، ودوائر حمراء تظهر حول الجسور ومحطات الضخ. إلى الجنوب، امتد الحي المنخفض داخل مجرى الفيضان القديم ككف مفتوحة.

وقف فارس الديب، زوج ليان ورئيس التشغيل، إلى جوار الشاشة المركزية. كان رجلاً عريض الكتفين، قليل الكلام، خدم مع مالك سبعة عشر عاماً وتعلم أن يميز أوامره التي تحمل النقاش

من تلك التي لا تحتمله. أشار إلى مقعد مالك، لكن مالك بقي واقفاً.

— الوضع.

قال فارس:

— العاصفة توقفت فوق الحوض الأعلى بدل أن تعبره. ثلاث محطات أمطار خارج الخدمة. آخر قراءة مؤكدة للخزان ستة وثمانون فاصلة أربعة، قبل إحدى عشرة دقيقة.

— التدفق الداخل؟

— غير مؤكد. النموذج يحسب ألفاً وثمانئة متر مكعب في الثانية، لكن المجرى عند الجسر يدل على أكثر.

تقدمت ليان من الطرف الآخر للطاولة. كان معطفها مبللاً حتى المرفقين، وغطاء رأسها مبتلاً عند الحواف. وضعت أمام مالك ورقتين مطبوعتين.

— هذه من الحساس الرقي، وهذه من العوامة الميكانيكية.

نظر إلى الأرقام.

— الفارق أربعة عشر في المئة؟

— الآن اثنا عشر. لكن الفارق لا يضيق على نحو طبيعي. أظن أن الشاشة المركزية لا تعرض اللحظة الحالية.

رفع رأسه إليها.

— قلت إن الحساس غير مستقر.

— قلت إنني لا أستطيع تأكيده قبل المعايرة.

— وفي الطوارئ، إن لم تستطعي تأكيد الرقم فلا تضعيه أمامي كحقيقة.

خفت الأصوات حولهما. رأى مالك أثر كلماته في وجهها، لكنه لم يتوقف.

— كم مرة اختبرتم مزامنة الخوادم هذا الشهر؟

— مرتين، وفق الجدول.

— إذن إما أن الاختبار لم يُنفذ، أو أنك تفسرين مشكلة أخرى على أنها تأخر زمني.

فتحت فمها لتجيب، ثم نظرت إلى فارس. لم يقل شيئاً. سحبت الورقتين قليلاً وقالت:

— سأعود إلى السجلات الختام.

ابتعدت.

قال فارس بصوت لا يسمعه غيره:

— كانت في المحطة العليا منذ الظهر.

— وكل دقيقة هناك كان ينبغي أن تجعل جوابها أدق.

— أو تجعلها أبرد من أن تختار كلماتها كما تحب.

التفت إليه مالك. ثبت فارس عينيه في الشاشة، كأنه لم يقل شيئاً.

انفتح باب الغرفة ودخل رئيس البلدية سالم وردي ومعه مسؤول الشرطة ومدير المستشفى العام. كان سالم يضع هاتفه على أذنه ويتحدث في الوقت نفسه إلى مساعديه.

— المقاطع في كل مكان، قال وهو يجلس. الناس يظنون أن الإنذار خطأ لأن الماء لا يزال داخل المجرى.

قال مالك:

— خلال ساعة لن يبقى داخله.

— أريد رقمًا يمكنني إعلانه.

— أعلن إخلاء المنطقة الحمراء.

— على أي أساس؟ إذا أخلينا سبعين ألف شخص ثم مرّت العاصفة، لن يدخل أحد متجره غدًا قبل أن يتهمنا بإغراق المدينة بالخوف.

أشار مالك إلى الخريطة.

— وإذا لم نخلهم فلن تكون المتاجر هي المشكلة غداً.

تدخل مدير الشرطة:

— نحتاج إلى ترتيب. الطرق الجنوبية ضيقة، والجسر الجديد تحت الصيانة. إذا خرج الجميع دفعة واحدة سنقفل طريق فرق الإنقاذ.
قال مالك:

— ابدأوا بالمجرى، ثم الحي المنخفض، ثم المنطقة الصناعية. افتحوا الطريق الساحلي باتجاه واحد إلى الشمال. أوقفوا القطارات عند المحطة القديمة واجعلوها نقاط إخلاء.

أخذ مسؤول الشرطة يدوّن. أما سالم فظل ينظر إلى مالك.

— هل ستفتح بوابات السد؟

— ليس قبل أن نعرف المستوى الحقيقي.

— تقول إن الوقت يضيق، ثم تريد الانتظار؟

— فتحتها الآن قد يدفع موجة إلى الحي قبل أن يخرج الناس.
إبقاؤها مغلقة قد يرفع الضغط إلى حد نفقد معه الاختيار كله.
لهذا أحتاج إلى رقم حقيقي، لا رقم يصلح لمؤتمر صحفي.

في الطرف الخلفي من الغرفة، سقط قلم معدني على الأرض.
انحنت ليان تلتقطه، ثم نادى:

— وجدت شيئاً.

لم يلتفت مالك إليها فوراً. أنهى توجيهه إلى الشرطة، ثم قال:

— ماذا؟

وصلت حاسوبها بالشاشة الجانبية. ظهرت ثلاثة خطوط متعرجة
فوق بعضها.

— الأزرق قراءة الخزان التي تصل إلى النظام المركزي. الأصفر
سجل العوامة. الأبيض ختم الوقت من وحدة الإرسال.

قال فارس:

— الأبيض يتقدم على الأزرق.

— بست دقائق وسبع عشرة ثانية، قالت ليان. النظام لا يعرض
قراءة خاطئة؛ يعرض قراءة قديمة.

اقترب مالك من الشاشة.

— منذ متى؟

— بدأ التأخر عند انقطاع المحطة الشرقية. الخادم حوّل البيانات إلى المسار الاحتياطي، لكن الذاكرة الوسيطة لم تفرغ بالسرعة الكافية.

— هل هذا مؤكّد؟

نظرت إليه هذه المرة دون أن تخفض عينيها.

— نعم.

حسب مالك في رأسه ما تعنيه ست دقائق عند معدل الارتفاع الحالي. بدا الرقم صغيراً على ساعة، لكنه في سد ممتلئ كان مساحة كاملة بين قرارين.

قال:

— اجعلوا جميع القراءات على التوقيت الخام. لا أريد رقماً يمر بالخادم المركزي. فارس، أرسل فريقين لقراءة المقياس يدوياً كل خمس دقائق. ليان، ابني خطأ حياً من وحدة الإرسال إلى هذه الشاشة.

قالت:

— أحتاج إلى فتح صلاحيات الإدارة.

— افتحها باسمي.

كان هاتفه يهتز في جيبه. أخرجه، فرأى اسم زوجته مها. رفض المكالمة ثم أرسل: «في الطوارئ. سأتصل.» ظهرت تحت رسالته ثلاث نقاط، ثم اختفت.

على الشاشة الكبيرة، انتقلت الكاميرا إلى الحي المنخفض. كانت السيارات تزحف بين الأسواق، والناس يحملون حقائب ومراتب وأقفاص طيور. عند مدخل الحي، وقف رجل فوق شاحنة صغيرة يلوح للناس أن يعودوا إلى بيوتهم، ويصيح أن السد آمن وأن الإخلاء حيلة من البلدية لهدم المنطقة.

قال رئيس البلدية:

— هذا سيتحول إلى فوضى.

أجاب مالك:

— أرسل شخصاً يعرفه الناس.

— من؟

قبل أن يجيب، دخل موظف الأمن واقترب من فارس. همس في أذنه، فتغير وجه فارس قليلاً.

قال مالك:

— ما الأمر؟

— هناك رجل في المدخل يطلب الدخول.

— لا وقت للزوار.

— يقول إن البوابات لن تستجيب بالترتيب الموجود في دليل التشغيل.

سكتت الغرفة، لا لأن العبارة كانت غريبة، بل لأن فارس لم يكن من الرجال الذين ينقلون كلام زائر مجهول.

سأل مالك:

— اسمه؟

تأخر فارس لحظة واحدة، وكانت كافية ليعرف مالك الجواب قبل أن يسمعه.

— كريم حداد.

على مدى خمسة عشر عاماً، لم يدخل هذا الاسم غرفةً كان فيها مالك إلا وغادرها أحدهما.

وضع مالك كفيه على الطاولة. تحت الخرائط والشاشات، شعر للحظة ببرودة الحديد في النفق القديم.

قال:

— أخرجوه.

لم يتحرك فارس.

— سمعتني.

قال فارس:

— سمعته. لكن الخزان عند سبعة وثمانين فاصل اثنين.

ثم نظر إليه أخيراً.

— وإذا كان يعرف شيئاً عن البوابات، فليس لدينا ترف كراهية
من يعرفه.

قبل الصفارات

في السابعة وعشر دقائق من صباح اليوم نفسه، كان آدم واقفاً عند باب المطبخ يحمل ورقة مطوية أربع مرات.

لم يكن مالك قد رفع عينيه عن شاشة الحاسوب. على الطاولة فنجان قهوة بارد، وهاتفان، ومخطط مطبوع للقناة الشرقية. كانت مها تقطع الخبز عند الرخامة، تراقب الاثنين من غير أن تتدخل. عرفت من وقفة ابنها أنه تدرب على الجملة في غرفته، وعرفت من صمت زوجها أنه رأى الظل أمام الباب واختار أن يكمل السطر.

قال آدم:

— أبي، أحتاج توقيعك.

مد مالك يده دون أن ينظر. بقيت الورقة مع آدم.

— على ماذا؟ سأل مالك.

— إنذار من المدرسة.

توقفت يد مها فوق لوح الخشب. رفع مالك رأسه أخيراً.

— ماذا فعلت؟

— لم أفعل شيئاً كبيراً.

— لم أسألك عن حجمه.

وضع آدم الورقة أمامه. قرأ مالك السطر الأول، ثم الثاني. غياب عن حصتين، دخول إلى غرفة المعدات من غير إذن، واستخدام كاميرا المدرسة خارج الوقت المخصص. لم يكن في الورقة ما يخيف، لكن مالك قرأها كما يقرأ تقرير عطل: يبحث عن الجزء الذي يحاول الكاتب تخفيفه.

— من كان معك؟

— عمر.

— ومن فتح الغرفة؟

تأخر آدم. كانت ثانية واحدة، لكنها بدت في المطبخ أطول من اللازم.

— كانت مفتوحة.

أعاد مالك الورقة إلى الطاولة.

— حين تجيب بهذه السرعة بعد هذا التأخر أعرف أنك رتبت نصف الحقيقة وتركت نصفها.

قالت لها:

— دعه يشرح من البداية.

— البداية واضحة. دخل مكاناً لا يحق له دخوله.

نظر آدم إلى أمه، ثم إلى الساعة. الحافلة ستمر بعد سبع دقائق. كان يستطيع أن يقول إن أمين المختبر ترك المفتاح في الدرج، وإن عمر قال إن المشروع سينقص درجاتهما إن لم يصورا المشهد، وإنه أعاد كل شيء إلى مكانه. لكنه عرف أباه حين يضع الوقائع في صف واحد؛ كل جملة إضافية ستبدو محاولة نجاة.

قال:

— سأقبل العقوبة.

لم يحب مالك العبارة. شعر أنها باب يغلقه ابنه في وجه السؤال، فدفعه بقوة أكبر بدل أن يفتحه.

— قبول العقوبة لا يعني من معرفة ما حدث.

— لم أقل إنه يعفيك.

رفع مالك عينيه. انكمش آدم قبل أن يرتفع الصوت، وراه. كان الانكماش صغيراً: كتف تحرك إلى الخلف، وأصابع أغلقت على حزام الحقيبة. مرّ في وجه الصبي شيء مألوف على نحو أزججه، لكنه لم يمسه. ظنه عناداً.

- وقع الورقة، وكتب تحت التوقيع أنه سيحضر لقاء الإدارة.
- بعد عودتي نتكلم.
- قالت لها:
- ستعود متأخراً. العاصفة فوق الحوض الأعلى.
- لهذا قلت بعد عودتي.
- ناول آدم الورقة. أخذها الصبي ووضعها في الحقيبة.
- هل أستطيع أن آخذ الكاميرا القديمة اليوم؟
- لا.
- لم تسأل لماذا.
- لأنك تحت إنذار متعلق بكاميرا.
- هي لمشروع النهر. المدرس يريد صوراً إذا وصل الماء إلى المجرى.
- الهاتف يكفي.
- الهاتف لا يثبت على الحامل.
- عاد مالك إلى الشاشة.
- الجواب لا.

خرج آدم قبل أن تصل الحافلة بدقيقة. أغلقت لها الباب بهدوء،
ثم بقيت واقفة وظهرها إليه.

قال مالك:

— لا تنظري إليّ هكذا.

— أنا لا أنظر إليك أصلاً.

— وهذا أسوأ.

استدارت. لم يكن في وجهها غضب، بل تعب قديم من محادثة
تكرر نفسها بأسماء مختلفة.

— أنت لا تكذب عليه، قالت. ولا تضربه، ولا تهمله. لكنك
تجعله يظن أن الحقيقة امتحان سرعة. إذا لم يقلها كاملة في أول
عشر ثوانٍ، صار كل ما بعدها دفاعاً.

— أريده أن يتحمل نتيجة فعله.

— وأنا أريده أن يأتيك بالفعل قبل أن تأتيك نتيجته.

أغلق مالك الحاسوب بعنف لم يقصده. أشار إلى مخطط القناة.

— لدي اجتماع عن نظام لم يحدث منذ سنوات، ومطر قد يتحول
إلى فيضان. ليس كل صباح مناسباً لجلسة طويلة عن مشاعر
مراهق دخل غرفة ممنوعة.

قالت مها:

— الحوادث الكبيرة تحب هذه الجملة. دائماً يوجد شيء أهم من الإصغاء قبل أن يصبح الصغير كبيراً.

حمل مالك الهاتفين والمخطط. عند الباب، رأى درج المكتب في الممر مفتوحاً مقدار إصبع. أغلقه وهو يمر، ولم يلاحظ أن البطاقة البلاستيكية القديمة لم تعد في داخله.

في السيارة، اتصل بليان. سألتها عن معايرة الحساس الاحتياطي قبل أن يقول صباح الخير. أجابته أن فريقها ينتظر قطع الغيار، وأن القراءة اليدوية مستقرة حتى الآن. قال لها أن تكتب «حتى الآن» في التقرير، لا في المكالمة، ثم أنهى الاتصال.

عند الإشارة الأخيرة قبل مبنى الهيئة، وصلته صورة من آدم: المجرى الجاف تحت الجسر، وفي أسفلها رسالة قصيرة: «إذا عاد الماء اليوم، هل كان سامي يحب أن يراه؟»

قرأ مالك الاسم مرتين. تحولت الإشارة إلى الأخضر، فزمر السائق خلفه. كتب: «ليس الآن يا آدم.» ثم مسحها قبل الإرسال. كتب: «من أخبرك عن سامي؟» ومسحها أيضاً.

حين تحركت السيارات، وضع الهاتف مقلوباً على المقعد. لم يرسل شيئاً.

بعد تسع ساعات، وهو واقف في غرفة الطوارئ أمام خريطة مدينة تضيء باللون الأحمر، تذكر الورقة المطوية. لم يتذكر تفاصيل الإنذار. تذكر فقط أن ابنه طلب أن يبدأ، وأنه منحه عشر ثوانٍ.

الرجل الذي لا ينبغي أن يعود

دخل كريم حداد غرفة الطوارئ من غير معطف، كأن المطر انتزعه عنه في الطريق. كان شعره قد اشتعل فيه الشيب عند الصدغين، ونحل وجهه عما يتذكره مالك، لكن مشيته بقيت كما هي: هادئة إلى حد يراه خصومه استفزازاً.

توقف عند الباب حين رأى مالك. لم يمد يده، ولم يسأل كيف حاله، ولم ينظر إلى الصورة الصغيرة المثبتة فوق لوحة التشغيل، صورة سامي بخوذته البيضاء في آخر عام له في الهيئة. قال مالك:

— لديك دقيقتان.

أجابه كريم:

— لو كان عندك دقيقتان لما جئت.

تقدم فارس خطوة بينهما قبل أن يتحول الصمت إلى شيء آخر.

— أخبرنا عن البوابات.

أخرج كريم من جيب قميصه ورقة مطوية أربع مرات. فتحها على الطاولة، فظهرت رسمة قديمة لمقطع السد، مرسومة بالخبير الأزرق وعليها ملاحظات بقلم رصاص.

عرف مالك الخط قبل أن يقرأ الكلمات.

مد يده إلى الورقة، ثم توقف.

— من أين حصلت عليها؟

— من صاحبها.

— سامي لم يعطك شيئاً.

— أعطاني هذه قبل موته بثلاثة أيام.

كانت الجملة بسيطة، لكنها دفعت الهواء خارج الغرفة. اقترب مالك حتى صار بينه وبين كريم طرف الطاولة فقط.

— جئت نـتـاجـر باسمه الآن؟

— جئت لأن الماء فوق المدينة، ولأنكم ما زلتم تستخدمون دليل تشغيل كُتب قبل تعديل البوابة الثالثة.

قال فارس:

— أي تعديل؟

أشار كريم إلى الرسم.

— بعد زلزال عام ثمانية، استُبدلت أسطوانة الرفع في البوابة الثالثة وربط خط توازنها بالرابعة. في التشغيل العادي لا فرق. عند الامتلاء السريع، إذا فتحت الثالثة كاملة قبل أن تخففوا الضغط عن الرابعة، سيهبط صمام الأمان ويغلق الاثنتين.

قال مالك:

— هذا غير موجود في سجل الصيانة.

— أعرف.

— لأنك أجريت تعديلاً غير مسجل؟

نظر كريم إليه طويلاً.

— لأن الإدارة آنذاك رفضت إيقاف السد أسبوعاً لاستبدال المنظومة كاملة. طُلب منا حل مؤقت. كتب سامي تقريراً. كتبت أنا مذكرة. أنت كنت رئيس لجنة التسليم.

سمع بعض الحاضرين الجملة نكبر هندسي. أما من عرفوا قصة سامي فسمعوها كاتهام.

قال مالك:

— لجنة التحقيق راجعت كل الأوراق.

— لجنة التحقيق راجعت ما وجدته في الملف.

رفع مالك الورقة أخيراً. كانت الحواف لينة من كثرة ما فُتحت وطويت. في الركن الأسفل كتب سامي: «التسلسل المقترح عند الارتفاع المتسارع». تحت العبارة أربعة أرقام وأسهم. لم يكن هذا تقريراً كاملاً، بل صفحة من عمل أكبر.

قال مالك:

— رسم غير موقع لا يغير إجراءات السد.

— إذن اخترت كلامي على المخطط التنفيذي.

أشار مالك إلى ليان.

— افثحي نسخة ما بعد الزلزال.

جلست ليان أمام النظام، وبحث في الأرشيف الرقمي. ظهرت على الشاشة عشرات الملفات المتشابهة. اختارت آخر نسخة تحمل ختم الاعتماد. كبر فارس منطقة خطوط الزيت، ثم قارنها بالرسم.

قال بعد دقيقة:

— خط التوازن موجود.

— لكنه منفصل هنا، قالت ليان.

أجاب كريم:

— على الورق فقط. افتحي صور الفحص الداخلي لعام تسعة.
ببحث من جديد. لم تجد الملف.

قال مالك:

— لأنك تبني كلامك على شيء لا يمكن التحقق منه.

— يمكن التحقق منه بالنزول إلى ممر الخدمة.

— الممر مغلق منذ الانهيار.

— الجزء الغربي مغلق. خط الصمامات في الجزء الشرقي.

ضرب مالك بأصابعه طرف الطاولة.

— لن أرسل فريقاً إلى نفق مات فيه رجل بسبب تعليماتك.

للمرة الأولى تغير وجه كريم. لم يرفع صوته، لكن الهدوء الذي كان يكسو كلماته انكسر.

— سامي لم يمت بسبب تعليماتي.

— قلت له إن الخلل لا يثبت إلا من الداخل.

— قلت له إن القياسات تحتاج إلى شاهد ميداني. وقلت له ألا يدخل وحده.

— لكنه دخل بعد أن تحدث معك.

— ودخل بعد أن تحدث معك أيضًا.

تدخل رئيس البلدية:

— كفى. إذا كان هذا الكلام سيساعدنا فليُفحص. وإذا كانت بينكما قضية قديمة فأجّلاها إلى مدينة لا تغرق.

لم ينظر مالك إليه. ظل يرى كريم، ويرى خلفه على الجدار وجه سامي في الصورة. كان أخوه يبتسم ابتسامة صغيرة لا تظهر أسنانه، ويرفع خوذته تحت ذراعه كأنه لم يتعلم بعد أن الصور الرسمية لا تحتفظ بشيء من الإنسان سوى ما سيؤول من يبقى بعده.

قال فارس:

— يمكننا إرسال نادر ورجلين من الصيانة إلى المدخل الشرقي. لا يدخلون الممر حتى نتأكد من سلامته بالمنظار.

قال مالك:

— افعل.

ثم أشار إلى كريم.

— يبقى هنا بصفة مستشار فني، ولا يصدر أمرًا لأحد.

قال كريم:

— لم آت لأستعيد كرسيًا.

— جيد. لأنك لن تستعيده.

عاد الجميع إلى الشاشات، لكن الغرفة لم تعد كما كانت. صار الماضي حاضرًا فيها على هيئة ورقة زرقاء، ورجل مبلى، واسم تجنب الموظفون النظر إلى صورته.

وقفت ليان قرب كريم لتأخذ منه تفاصيل التسلسل. شرح لها بهدوء كيف تتبادل البوابتان الضغط، وكيف يمكن لصوت المحرك أن يكشف اختناق الصمام قبل أن يظهر على المؤشر. كانت تسأله بسرعة، وهو يجيب من غير أن يثبت عينيه على مالك. بعد دقائق، وصلت أول صورة من منظار فريق الصيانة. ظهر أنبويان يمران في الجدار ثم يلتقيان عند وصلة واحدة.

قال فارس:

— كريم محق.

لم يقل أحد شيئاً بعد ذلك. لم يكن في الجملة ما يحتمل التخفيف. أصدر مالك أمرًا بتعديل تسلسل الفتح، ثم طلب اختبار البوابتين بنسبة خمسة في المئة. بدأت أرقام الضغط تتغير. ظهر اهتزاز قصير

في خط الثالثة، ثم استقر بعد فتح الرابعة جزئياً، تماماً كما قال كريم.

أخذ رئيس البلدية نفساً طويلاً.

— كنا سنغلقهما معاً.

قال فارس:

— على الأرجح.

نظر سالم إلى مالك. لم يقل: لقد أنقذنا الرجل الذي طردته. لكن العبارة صارت موجودة في الغرفة، حتى من غير أن ينطق بها أحد.

طوى كريم رسم سامي، إلا أن مالك وضع يده عليه.

— يبقى هنا.

— هذه نسختي الوحيدة.

— سنصورها.

— صورها الآن.

اقتربت ليان بهاتف المسح، فرفع كريم يده قليلاً كي لا تلمس يد مالك. التقطت الصفحة، ثم أعادها إلى صاحبها.

قال مالك:

- ما الذي أراده سامي بهذا التسلسل؟
- أن يمنع البوابات من أن تتحول إلى اختيار بين حي وحي.
- لم يكن هناك حي منخفض بهذه الكثافة آنذاك.
- كان يعرف أنهم سيننون في المجرى إذا طال الجفاف.
- لم يكن يعرف المستقبل.
- لم يحتاج إلى معرفته. كان يعرف الناس.
- وضع كريم الورقة في جيبه.
- وكان يعرف أن هذه الليلة ستأتي.

ست دقائق

بعد الساعة السادسة بقليل، صارت المدينة تعيش على ساعتين لا تتفقان.

الساعة الأولى في غرفة الطوارئ، تقيس ارتفاع الخزان كل دقيقة، وضغط البوابات، وسرعة الرياح، وعدد الحفلات التي غادرت الحي المنخفض. والساعة الثانية في الشوارع، تقاس بالوقت الذي تحتاجه أم لتوقظ طفلاً، أو رجل ليختار ما يحمله من بيته، أو سيارة لتتحرك متراً واحداً داخل طابور لا يرى نهايته.

بين الساعتين بقيت ست دقائق كاملة، هي التأخر الذي اكتشفته ليان في النظام.

طلب مالك منها أن تشرح الخلل مرة أخرى أمام فريق القرار. وقفت بجوار الشاشة وعرضت السجلات الخام. كانت هذه المرة تتحدث بسرعة باردة، لا تترك في عبارتها موضعاً يمكن أن يصححه.

قالت:

— حين انقطعت المحطة الشرقية في الرابعة وإحدى عشرة دقيقة، تحولت البيانات إلى الخادم الاحتياطي. ظل الخادم يستقبل الحزم، لكنه عرضها بحسب وقت وصولها لا وقت قياسها. مع تزايد الحزم، اتسع التأخر حتى بلغ ست دقائق وسبع عشرة ثانية. أصلحت المسار، لكن علينا اعتبار كل قرار قبل الخامسة وأربعين مبنياً على مستوى أقل من الحقيقة.

سأل رئيس البلدية:

— هل كنتم تعرفون بوجود المشكلة؟

قالت ليان:

— رأيت عدم التطابق عند الثالثة وثمانٍ وخمسين. ظننته خلل معايرة أولاً.

نظر مالك إليها.

— لماذا لم يصلني في الثالثة وثمانٍ وخمسين؟

رفعت عينيها عن الحاسوب.

— اتصلت بمكتبك.

— كنت في اجتماع.

— تركت رسالة لفارس.

قال فارس:

— وصلتني في الرابعة وست دقائق. طلبت من الفريق إعادة الفحص قبل أن نقاطع الاجتماع.

— لماذا؟

لم يجب فارس فوراً. نظر إلى الخرائط، ثم إلى الموظفين الذين صاروا يصغون ولو تظاهروا بالعمل.

— لأننا لم نملك رقماً مؤكداً، ولأن آخر مرة دخلنا عليك باحتمال لم يكتمل، أخرجت اثنين من الاجتماع وقلت إن غرفة الأزمات ليست مدرسة تخمين.

قال مالك:

— وهل كان عليّ أن أترك كل احتمال يعطل قراراً؟

— لا.

— إذن؟

قال فارس:

— كان عليك أن تجعلنا نعرف الفرق بين إزعاجك وإنقاذ المدينة. لم يتحرك أحد. حتى كريم، الذي كان يستطيع أن يستمتع بالجملة، بقي يراقب خريطة الضغط.

شعر مالك بحرارة تصعد إلى وجهه. وجد عشر إجابات في لحظة واحدة: أن فارس يتحدث أمام الغرباء، وأن المسؤولية لا تتحمل الحساسية، وأن الموظف الذي يخاف من مديره لا يصلح للطوارئ. كانت الإجابات جاهزة لأنها خدمته أعوامًا. لكنه نظر إلى الخط الأزرق المتأخر ست دقائق، وفكر في معلومة صحيحة بقيت خارج بابه لأنها لم ترتد ثياب اليقين كاملة.

قال:

— من الآن، يصل كل تحذير إلى هذه الطاولة مع درجة تأكده، لا بعد أن يصير يقينًا. لا أحد ينتظر إذني كي يخبرني أنني قد أكون مخطئًا.

لم يعتذر. لم يعرف كيف يفعل ذلك أمام هذا العدد من الناس. لكنه رأى كتفي ليان يهبطان قليلًا، ورأى فارس يومئ مرة واحدة.

رن هاتفه. كانت لها للمرة الخامسة.

خرج إلى الممر وأجاب.

— أين آدم؟ سأل قبل أن تقول شيئًا.

— هذا ما أحاول أن أخبرك به. ليس في البيت.

— أين ذهب؟

- قال إنه مع نادي المدرسة في الساحة الشمالية.
- قال؟
- اتصلت بالمشرف. النشاط ألغي ظهراً.
- ضغط مالك الهاتف بقوة.
- هل اتصلت به؟
- يجب ثم يقول إن الشبكة سيئة. أرسل صورة قديمة من الساحة.
- كيف تعرفين أنها قديمة؟
- لأن السماء فيها صافية.
- أغلق مالك عينيه. كان ابنه في السادسة عشرة، في العمر نفسه الذي بدأ فيه مالك يعامل الخوف كإهانة يجب إخفاؤها. كتب رقم آدم واتصل.
- أجاب بعد الرنة السادسة.
- أبي؟
- كان خلف صوته ضجيج وصفارات.
- أين أنت؟

- في طريق العودة.
- من أي مكان؟
- من عند عمر.
- عمر يسكن في التلال. لماذا أسمع صفارة الحي المنخفض؟
- سكت آدم.
- قال مالك:
- أجبني الآن.
- قلت لك إني عائد.
- هل أنت في المجرى؟
- لا.
- أقسم أنك لست هناك.
- أبي...
- لا تقل أبي. قل أين أنت.
- انقطع الخط.
- اتصل مالك ثانية. ظهر الهاتف مغلقًا.

ضرب الحائط بكفه، ثم عاد يتصل. لا جواب. جاءه صوت مها من الهاتف الآخر؛ لم يدرك أنه لم ينه مكالمتها.

قالت بهدوء شديد:

— كلما خاف منك، كذب أكثر.

— ابني في منطقة إخلاء وأنت تتحدثين عن أسلوبني؟

— أتحدث عن الطريق الوحيد لمعرفة مكانه.

— سأرسل الشرطة لتتبع الهاتف.

— أرسلهم. لكن إن اتصل مرة أخرى، لا تجعله يختار بين أن يقول الحقيقة وأن يعود ابناً صالحاً في عينيك.

أغلق الخط دون وداع. وقف وحده في الممر، يسمع الطابعة وصفارات الأجهزة خلف الباب. كان يستطيع أن يأمر مئة رجل بإخلاء حي، ولا يستطيع أن يجعل ابنه يقول له اسم شارع.

خرجت ليان من الغرفة تحمل لوحة إلكترونية.

— أستاذ مالك، جاءت قراءة من المحطة الجبلية. التدفق ازداد عشرين في المئة.

رأت يده على الحائط، وتوقفت.

— هل أنت بخير؟

أعاد يده إلى جانبه.

— أعطني اللوحة.

كان الخزان عند تسعة وثمانين فاصل واحد. بقي أقل من ثلاثة أمتار قبل مستوى التصريف غير المتحكم به.

— كم حافلة خرجت؟

— سبع عشرة من أصل اثنتين وستين.

— والجسر الساحلي؟

— شبه متوقف.

عاد إلى الغرفة. كان كريم يرسم مساراً على خريطة ورقية.
قال:

— إذا زاد التدفق، فلن يكفي التسلسل الجديد.

سأله مالك:

— ماذا تقترح؟

رفع كريم عينيه إليه، وكأن السؤال فاجأه أكثر من العاصفة.

— نفتح قناة التصريف القديمة.

قال فارس:

- القناة مغلقة منذ ثلاثين عاماً.
- مدخلها مغلق. جسمها موجود، ويصل إلى الوادي الشمالي قبل الحي المنخفض.
- لماذا لم تظهر في النماذج؟
- لأنها اعتُبرت غير صالحة بعد انهيار جزء من النفق.
- قال مالك:
- النفق الذي مات فيه سامي.
- نعم.
- لا.
- لم أشرح الخطة بعد.
- لا يوجد فريق سينزل إلى هناك.
- قال كريم:
- إذا فاض الخزان، سينزل الماء إليه وحده، ومعه نصف الجبل.
- اقترب مالك منه.
- قلت لا.
- نظر كريم إلى فارس، ثم إلى ليان، ثم أعاد القلم إلى الطاولة.

— لهذا ماتت ست دقائق قبل أن تصل إليك، قال. لأن الجميع هنا يعرف أن أول جواب عندك أهم من آخر حقيقة.

تحرك مالك نحوه، لكن صفارة جديدة انطلقت من الشاشة. ظهرت منطقة حمراء عند الطرف الغربي للسد.

قالت ليان:

— ارتفاع مفاجئ في ضغط الرشح.

انحنى فارس فوق البيانات.

— هل هو خلل آخر؟

قالت:

— لا. هذه قراءة يدوية.

رفع مالك بصره إلى الخريطة. كان المؤشر الأحمر يلمع في المكان نفسه الذي يبدأ عنده النفق القديم.

أخذ نفساً بطيئاً، ثم قال لكريم:

— اشرح الخطوة.

الحي المنخفض

قبل ذلك بساعة، حين دوّت صفارة الإخلاء الثالثة، كان آدم نصار على سطح مخزن مهجور، يحاول أن يستعيد حقيبة سقطت إلى شرفة الطابق الثاني.

لم تكن الحقيبة له. كانت لعمر، وفيها كاميرا المدرسة وبطاقنا ذاكرة لم يدفع ثمنهما أحد منهما. أما السبب الذي جعلهما فوق المخزن أصلاً، فكان بطاقة بلاستيكية أخذها آدم من درج مكتب أبيه قبل يومين. حملت البطاقة شعار هيئة المياه، واسم مالك نصار، وصورة قديمة ظهر فيها أبوه أقل تعباً وأقرب إلى الرجل الذي تتحدث عنه أمه حين تروي سنواتهما الأولى.

لم يكن آدم يريد أن يسرق شيئاً. أراد فقط أن يصور عودة الماء من منصة المراقبة المغلقة فوق محطة الضخ القديمة. قال لعمر إن البطاقة لن تعمل بعد كل هذه السنوات. وحين فتحت الباب، ضحكا كما يضحك اثنان نجحا في خداع نظام أكبر منهما.

ثم سمعا الصفارات.

نزلا مسرعين، فسقطت الحقيبة بين سطحين. قفز عمر وراءها،
والتوى كاحله عند الهبوط. منذ ذلك الوقت وهما يتحركان أبطأ
من المدينة التي بدأت تهرب.

قال عمر من السلم:

— اتركها. ستقتلنا الكاميرا قبل أن تعاقبنا المدرسة.

مد آدم عصاً حديدية نحو الحزام العالق.

— ستدفع ثمنها إذن؟

— سيدفع أبوك. هو مدير السد.

— لهذا لن يدفع.

نجح في رفع الحقيبة، ثم نزل. كان الماء قد دخل آخر الشارع في
طبقة رقيقة تلمع تحت أضواء السيارات. سار الناس في اتجاهين
متعاكسين: بعضهم نحو الحافلات، وبعضهم عائد إلى البيوت لأنهم
نسوا دواءً أو وثيقة أو قطعة تركوها خلف باب مغلق.

أمسك آدم بذراع عمر ووضعها على كتفه.

— نستطيع بلوغ المدرسة خلال عشر دقائق.

— قلت لأبي إنني في البيت.

— وأنا قلت لأبي إنني عندك.

ضحك عمر رغم الألم.

— على الأقل نحن متفقان على شيء.

ظهر اسم مالك على هاتف آدم للمرة الثالثة. نظر إليه حتى أوشك الاتصال أن ينقطع، ثم أجاب.

في اللحظة التي قال فيها أبوه «أين أنت؟» شعر آدم أن الشارع كله يصمت. لم يعرف لماذا كان الكذب أسهل من نطق اسم الحي. ربما لأن الحقيقة لم تكن مجرد مكان؛ كانت البطاقة، والباب المغلق، والكاميرا، وعمر الذي لا يستطيع الركض، وكل التحذيرات التي سمعها قبل خروجه. كان عليه أن يعترف بكل شيء دفعة واحدة، وأبوه لم يكن يعطي أحداً وقتاً ليبدأ من البداية.

قال إنه في طريق العودة.

وحين طلب منه أبوه أن يقسم، رأى الماء يلتف حول إطار سيارة مركونة، ورأى رجلاً يحمل طفلاً نائماً ويمشي به نحو الحافلات. أحس بالخوف يتحول في صدره إلى غضب، كما يحدث دائماً حين يكلمه أبوه بذلك الصوت.

أغلق الهاتف.

قال عمر:

— سيقتلنا.

— إذا خرجنا من هنا أولاً.

تحركا نحو المدرسة. عند تقاطع السوق، توقفت حركة الناس أمام بيت صغير بباب أخضر. كانت سلمى، وهي أم خمسة أبناء وأرملة منذ سبع سنين، تجلس على كرسي خشبي في المدخل وترفض أن تتحرك. قال رجل من الدفاع المدني إن الحافلة الأخيرة ستغادر، فقالت سلمى إن زوجها يعرف هذا البيت وسيعود إليه، وإنها لن تجعله يبحث عنها في المدارس كلاجئة.

صرخت أخت سلمى:

— زوجك مات منذ سبع سنين يا خالة سلمى.

نظرت سلمى إليها بغیظ.

— ومن طلب رأيك؟

حاول رجل الإنقاذ رفعها، فضربت يده بعكازها.

ترك آدم عمر مستنداً إلى واجهة متجر واقترّب.

— خالة سلمى، قال، المدرسة فيها رجال من الحي. إذا عاد زوجك سيسألونه عنك.

حدقت فيه.

— أنت ابن من؟

تردد.

— ابن مها.

— مها المعلمة؟

— نعم.

— أمك كانت تعرف كيف نتكلم. ليست مثل هؤلاء.

مد يده إليها.

— قالت لي إنك تحفظين أسماء الناس كلهم. نحتاجك في المدرسة حتى لا يضيع أحد.

نظرت إلى الماء الذي وصل عتبة البيت. اهتز فمها قليلاً، ثم مدت يدها.

ساعدتها آدم مع رجل الإنقاذ. وحين ابتعدوا بها، نادته:

— حقيبة زوجي!

كانت حقيبة جلدية فوق خزانة عند الباب. دخل آدم خطوتين، تناولها، ثم سمع صوتاً يشبه اصطدام شاحنة بجدار. انطفأت الأنوار في الشارع. في البعيد، انفجر زجاج محل كامل دفعة واحدة.

صاح رجل الإنقاذ:

— اخرج!

اندفع الماء من نهاية السوق بارتفاع الركبة. ضرب الباب الأخضر وفتحه إلى الداخل، فاصطدم بظهر آدم. أمسك إطار الباب، لكن الحقيبة سقطت منه. رأى الماء يدور بها ثم يحملها إلى الغرفة. مد يده إليها غريزياً.

أمسكه شخص من قيصه وسحبه إلى الخارج.

سقطا معاً فوق عتبة مرتفعة. مرّت أمامهما طاولة بلاستيكية وارتطمت بسيارة. رفع آدم رأسه، فرأى رجلاً ذا لحية رمادية قصيرة يمسكه بكلا يديه.

— هل كُسر شيء؟

هز آدم رأسه.

— عمر.

أشار إلى المتجر. كان عمر ما يزال هناك، لكن الماء صار بينهما.

حمل الرجل حبلًا من سيارة الدفاع المدني وربطه حول خصره. عبر الشارع متكئًا على واجهات المحلات، ثم وصل إلى عمر

وساعده حتى المنصة المرتفعة. تحرك بثبات شخص يعرف كيف يدفع الماء دون أن يعطيه صدره.

سأله آدم حين اجتمعوا:

— ما اسمك؟

قال الرجل:

— كريم.

لم يعرف آدم الاسم. لكنه لاحظ أن رجل الإنقاذ الآخر عرفه، لأن ملامحه تغيرت ثم أخفى ذلك بسرعة.

وصلت سيارة دفع رباعي من جهة الجسر. نزلت منها ريم، أخت كريم الصغرى، وكانت في مطلع العشرينات. صاحت:

— أخي! يجب أن تعود إلى غرفة الطوارئ. اتصلوا ثلاث مرات.

قال كريم:

— خذي الصبيين وسلهى إلى المدرسة.

— الطريق يغلق.

— لهذا اذهبي الآن.

نظرت ريم إلى آدم وعمر، ثم فتحت الباب الخلفى. ساعدهم كريم على الصعود. وقبل أن يغلق الباب، سقطت البطاقة المسروقة من جيب آدم إلى الأرض.

انحنى كريم والتقطها.

قرأ الاسم، ثم رفع عينيه إلى الصبي.

— أنت ابن مالك؟

مد آدم يده إلى البطاقة.

— هذه قديمة.

— أعرف.

كان فى صوته شيء جعل آدم يسحب يده قبل أن يأخذها. سأل:

— تعرف أبى؟

نظر كريم إلى الماء الذى يملأ السوق، ثم أعاد البطاقة إليه.

— أعرف الرجل الذى كانه قبل أن يعرفه الناس الآن.

أغلق الباب. تحركت السيارة ببطء بين الناس.

فى المقعد الأمامى؁ كانت أخت كرىم تتحدث مع نقطة الإخلاء.
قال عمر بصوت خافت:

— أبوك يعرف الجميع إلا أنت.

لم يجه آدم. كان ينظر إلى بطاقة أبيه فى يده. فى الصورة القديمة؁
لم تكن هناك الخطوط العميقة حول الفم؁ ولا النظرة التى تجعل
من يقف أمامه يراجع كلماته قبل أن يقولها.

قلب البطاقة. على ظهرها؁ بخط باهت؁ وجد اسماً لم يره من قبل:

«سامى نصار — ممر الخدمة 3».

فهم أن البطاقة لم تكن لأبيه أصلاً.

الصفحة السابعة عشرة

كان ملف حادث سامي محفوظاً في خزانة معدنية لا تفتحها المفاتيح الإلكترونية.

احتفظ مالك بالمفتاح الصغير في محفظته خمسة عشر عاماً. نقله من محفظة إلى أخرى كلما يلي الجلد، مع أنه لم يفتح الخزانة إلا مرتين: مرة بعد انتهاء التحقيق، ومرة في الليلة التي قرر فيها ألا يقرأ الملف من جديد.

عند السابعة وثلاث وثلاثين دقيقة، طلب من موظف الأرشيف أن يحضر الخزانة كلها إلى غرفة جانبية. لم يرد أن يراها كريم قبل أن يعرف ما فيها. ولم يرد، في الحقيقة، أن يراها أحد وهو يفتحها. دخل وحده وأغلق الباب.

كان المفتاح أثقل مما ينبغي. دار في القفل بصعوبة، ثم انفتح الباب بصوت معدني قصير. في الداخل ثلاثة مجلدات، وخوذة سامي، وكيس شفاف يحتوي ساعة توقفت عقاربها عند الواحدة واثنى عشرة دقيقة.

لمس مالك حافة الخوذة. بقي عليها خدش طويل لم تسمح أمه بإصلاحه أو تنظيفه. قالت يوم تسلمتها إن الأشياء التي تعود من الموتى لا ينبغي أن تتظاهر بأنها سليمة.

أخرج المجلد الأول. على غلافه: «حادث ممر الخدمة — تقرير أولي». المجلد الثاني للتحقيق الإداري. الثالث لملاحظات التشغيل في الأسبوع الذي سبق الحادث.

فتح الثالث.

ظهرت أمامه توقيعات يعرفها: فارس في أول شبابه، كريم، مدير السد السابق، واسم مالك نفسه يتكرر في أسفل الصفحات بصفته رئيس لجنة التسليم. بين الصفحات الثانية عشرة والثامنة عشرة، وجد حافة ورقة ممزقة عند المشبك.

عدّ الصفحات مرة أخرى.

اثننا عشرة.

ثلاث عشرة.

أربع عشرة.

ست عشرة.

ثم ثماني عشرة.

- لم تكن الصفحة السابعة عشرة موجودة.
- طرق فارس الباب ودخل قبل أن يأذن له مالك.
- الفريق عند مدخل النفق. ضغط الرشح يرتفع، لكن الجدار الشرقي ما زال ثابتاً.
- رأى الملف المفتوح.
- منذ متى الصفحة ناقصة؟ سأل مالك.
- اقترب فارس.
- لا أعرف.
- كنت عضواً في التحقيق.
- كنت مسؤول تشغيل مناوباً، وسلمت سجلاتي. لم أر الملف الكامل بعد ذلك.
- هل أخذ كريم نسخة؟
- ربما. لكنه لو كان أخذها لما انتظر خمسة عشر عاماً ليستخدمها.
- رفع مالك عينيه إليه.
- استخدمها في ماذا؟
- في أن يدافع عن اسمه، على الأقل.

أغلق مالك المجلد بعنف.

— هل جئت لتساعدني أم لتحاكم كل جملة أقولها؟

قال فارس:

— جئت لأقول إن نادر وجد صمام القناة القديمة، وإنه عالق عند الإغلاق الكامل. وإذا أردنا فتحه فعلينا إنزال شخص إلى منصة التحكم اليدوي.

— لا أحد ينزل حتى تصلنا صور هيكلية.

— كريم يقول إن سامي وضع طريقة لفتحه من الأعلى.

— كريم يقول أشياء كثيرة الليلة.

— وكان محققاً في أولها.

خرج فارس قبل أن يجيبه مالك.

ظل مالك واقفاً أمام الخزانة. من الغرفة الأخرى وصل صوت ليان وهي تعد تنازلياً لاختبار البوابة، ثم اهتز المبنى اهتزازاً خفيفاً حين تحركت الكتلة المعدنية في السد على بعد كيلومترات.

أخرج هاتفه. ظهرت رسالة من مها: «وجدوا آدم. هو في مدرسة الحي، بخير. عمر مصاب إصابة بسيطة. سأوجه إليهما.»

قرأها مرتين. كتب: «الحمد لله». ثم محا العبارة، وكتب: «ابقيا هناك حتى أعطيك طريقاً آمناً». أرسلها، وبقي ينظر إلى الشاشة. أراد أن يتصل بابنه، لكنه خاف أن يسمع نفسه يبدأ بالسؤال نفسه: لماذا كذبت؟

رن الهاتف قبل أن يقرر. كانت أمه.

— يا أمي، أنا في العمل.

— أعرف أين أنت.

كان صوت صفية نصار ضعيفاً في السنوات الأخيرة، لكنه لم يفقد قدرته على إيقافه عند أول كلمة.

قالت:

— رأيت الماء في التلفاز. وقالوا إن كريم عاد إلى السد.

— من قال لك؟

— المدينة كلها تقول. أظن أن الأسرار تبقى عندكم لأن أبوابكم من حديد؟

نظر إلى الخزانة المفتوحة.

— سنتحدث لاحقاً.

— لا تؤجل هذه الليلة كما أجلت تلك الليلة.

تصلب جسده.

— ماذا تقصدين؟

— تعرف ما أقصد.

— إن كان لديك كلام فقولي بوضوح.

صمتت. سمع في الخلفية صوت التلفاز ثم صوت المطر على نافذتها.

— جاءني سامي قبل موته بيوم، قالت. كان غاضباً منك، لكنه لم يكن يكرهك. أرادني أن أكلمك.

جلس مالك على الكرسي الوحيد.

— لم تخبريني بهذا.

— لأنك دخلت عليّ بعد موته ومعك اسم الرجل الذي قررت أنه السبب. لم تسألني عن سامي. أخبرتني عن كريم.

— لجنة التحقيق قالت إنه دفعه إلى النزول.

— قالت إنه كان آخر من ناقشه في الخلل. أنت جعلت هذا جواباً لكل سؤال.

— أمي، ليس هذا وقت...

— بل هذا وقته. لأن الماء الذي أخذ أخاك يقف الآن فوق أولاد الناس.

أبعد الهاتف عن أذنه لحظة، ثم أعاده.

— ماذا قال لك سامي؟

— قال إنك لم تقرأ تقريره. قال إنك رأيت اسمه فوق الورقة فغضبت قبل أن ترى ما تحت الاسم.

شعر مالك أن الغرفة تضيق.

— قرأت كل التقارير.

— هذا ما قلته لنفسك طويلاً.

— هل رأيت التقرير؟

— رأيت ورقة في يده. وكانت عليها كتابتك.

قبل أن يسألها، طرق أحدهم الباب. دخلت ليان ومعهما كريم. نهض مالك فوراً.

— طلبت أن أبقى وحدي.

قالت ليان:

— نحتاج إلى ملف التعديل القديم. كريم يقول إن منه نسخة هنا.

قال مالك لأمه:

— سأتصل بك.

أجابته:

— لا تغلق الحقيقة مرة أخرى يا بني.

انتهت المكالمة.

أشار مالك إلى المجلد.

— الصفحة السابعة عشرة ناقصة.

نظر كريم إلى حافة الورقة عند المشبك، ولم يبدُ عليه التفاجؤ.

— أعرف.

— كيف؟

أخرج من حقيبته غلافًا بلاستيكيًا رقيقًا. داخله ورقة مصفرة،

مثقوبة عند طرفها. وضعها على الطاولة بينهما.

— لأن سامي أعطاني نسخة كربونية منها.

مد مالك يده، لكن كريم لم يرفع يده عن الغلاف.

— قبل أن تقرأها، أريد أن تعرف أنني لم أحتفظ بها لأساومك.
احتفظت بها لأن لجنة التحقيق أعادت إلي أوراقك كلها إلا هذه،
ولأنني فهمت أن النسخة الأصلية لم تعد في الملف.

— تتهمني بإزالتها؟

— لا أعرف من أزالها.

— لكنك تعرف كيف تجعل كل جملة تشير إليّ.

قالت ليان:

— أستاذ مالك، مستوى الخزان تجاوز التسعين. نحتاج إلى
التسلسل.

رفع كريم يده عن الورقة.

فتح مالك الغلاف. في أعلى الصفحة كتب سامي: «ملحق 4 —
سلوك حساسات المنسوب عند التدفق المتسارع». وتحت الجداول
فقرة قصيرة تقول إن النظام قد يعرض قراءة متأخرة عند التحول
إلى المسار الاحتياطي، وإن تأخرًا من أربع إلى سبع دقائق يكفي
لإفساد تسلسل فتح البوابات.

كانت الفكرة نفسها التي اكتشفتها ليان قبل ساعات.

في الهامش الأيسر، ظهرت كتابة مالك.

عرف ضغط القلم، وطريقة اختصاره حرف الميم، والخط الصغير الذي يضعه تحت الأرقام. لم يحتاج إلى خبر ليثبت أن العبارة له: «يؤجل. تعاد المعايير صباحاً. م. ن.»

جلس دون أن يشعر.

عادت إليه الليلة القديمة لا كصورة كاملة، بل كأجزاء حادة: سامي واقف عند باب مكتبه، الماء يقطر من شعره. ورقة مبللة عند الحافة. صوته يقول إن الخادم يخفي ست دقائق. مالك يطلب منه ألا يحول اجتماع التسليم إلى مسرح ليثبت أنه أذكى من الجميع. سامي يرد بكلمة لم يتذكرها الآن، أو لم يرد أن يتذكرها. ثم يكتب مالك ملاحظته في الهامش، يدفع الورقة نحوه، ويقول: «صباحاً.»

لكن الصباح لم يأت لسامي.

سأل بصوت لم يعرفه:

— لماذا دخل النفق؟

قال كريم:

— لأنك طلبت إعادة المعايير.

— لم أطلب منه أن يدخل.

— أعرف.

— إذن لماذا؟

نظر كريم إلى صورة سامي خلف الزجاج في الغرفة الأخرى.

— لأنه ظن أن الدليل الوحيد الذي ستقرأه هو الدليل الذي يحمله إليك بيديه.

انطلقت صافرة الإنذار العامة. لم تكن صفارة شاشة أو بوابة. كان صوتاً طويلاً عميقاً يملأ المبنى كله.

جاء فارس من الباب وهو يلهث.

— الماء بلغ مستوى التصريف.

وقفت ليان أمام الشاشة المحمولة. ظهر خط أحمر يقطع الرقم تسعين فاصلة سبعة.

قال فارس:

— أمامنا اثنتان وعشرون دقيقة قبل أن يبدأ الفيضان فوق الحافة، إذا لم يتغير المعدل.

سأل مالك:

— وكم بقي في الحي المنخفض؟

— أكثر من عشرين ألفاً.

نظر مالك إلى ملاحظته القديمة في هامش الصفحة. أربع كلمات كتبها في دقيقة غاضبة، وعاشت بعد أخيه خمسة عشر عاماً حتى عادت في الليلة نفسها التي عاد فيها الماء.

طوى الغلاف البلاستيكي بحذر، ثم دفعه إلى ليان.

— صوّري الصفحة وأضيفي نموذج سامي إلى المحاكاة.

نظر إلى كريم.

— ستدخل غرفة القرار.

قال كريم:

— قلت إنني مستشار فقط.

— كنت مخطئاً.

كانت هذه أول مرة يقولها مالك في الغرفة، ولم تسقط السدود، ولم ينطفئ الضوء، ولم يفقد صوته. لكن أحداً لم يملك وقتاً ليتأمل ذلك.

على الشاشة الكبيرة، بدأ خط أزرق جديد يرسم طريقاً للماء لم يظهر في أي نموذج سابق.

الجزء الثاني

ما أخرجہ الماء

ما أخفته الشاشة

جلست ليان وحدها في غرفة الخوادم، وبينها وبين بقية فريق الطوارئ باب زجاجي لا يمنع الأصوات. كانت ترى مالك يتحرك أمام الخريطة، وتشاهد فارس يوزع الفرق، ولا تسمع إلا أنيز أجهزة التبريد وطرقات المطر على فتحة التهوية.

نزعت معطفها المبلل ووضعت فوق كرسي. في كمه الأيسر خط من الطين جف على شكل أصابع، أثر اللحظة التي انزلت فيها قرب محطة القياس وأمسكها الفني من ذراعها. لم تذكر الحادثة في المكالمات. كانت تعرف أن مالك سيحوّلها إلى سؤال عن بروتوكول السلامة، ثم يضيع الرقم الذي اتصلت من أجله.

فتحت السجل الخام. ظهر أمامها صف طويل من الأزمنة والقراءات. الخادم المركزي يستقبل نبضة كل ثلاثين ثانية. الحساس الاحتياطي يرسلها. لوحة العرض تحفظها. ومع ذلك، كانت النقطة التي تراها غرفة القرار متأخرة.

اختارت أول ساعة من النهار، وقارنتها بالساعة الذرية في النظام. لا فرق.

الثانية عشرة. سبع عشرة ثانية.

الثانية والنصف. دقيقة وإحدى عشرة.

الثالثة وأربع دقائق. ثلاث دقائق.

عند الرابعة، أصبح الفرق ست دقائق كاملة ثم ثبت.

لم يكن عطلاً مفاجئاً. كان تراكماً.

كبرت نافذة التنبيهات القديمة. وجدت رسالة قبل ثلاثة أسابيع: «فشل مزامنة مؤقت. أعيد التشغيل تلقائياً». تحتها توقيعها الإلكتروني. تذكرت الليلة. كانت أمها في المستشفى بعد سقوطها، وكانت ليان تتابع لوحة الهيئة من هاتفها في الممر. ضغطت اعتماد الإغلاق لأن النظام عاد أخضر، وكتبت أن الاختبار اليدوي سينفذ في أول دوام.

في أول دوام، جاء اجتماع الميزانية. ثم زيارة الوفد. ثم عطل محطة الضخ الغربية. نُقل الاختبار إلى قائمة مؤجلة لا يفتحها أحد إلا حين يبحث عن اسم يتحمل به الخطأ.

وضعت يدها على لوحة المفاتيح. كان يمكنها أن تذهب إلى مالك الآن وتقول إن الخادم تأخر. هذا صحيح. وكان يمكنها أن تقول إن قطعة المورد هي السبب. ربما يكون صحيحاً. لكن الحقيقة التي تخصها هي أنها رأت التنبيه، وقبلت إغلاقه، ولم تعد إليه.

رن هاتفها. أختها هناء.

— أمي تسأل إن كنت ستأتين الليلة.

نظرت ليان إلى الخريطة الصغيرة في زاوية الشاشة. بيت أمها في طرف الحي الشمالي، خارج مسار الإخلاء الأول، لكنه قريب من الطريق الذي ستعبره الحافلات.

— لا أستطيع.

— الأخبار تقول إن السد بخير.

— الأخبار لا تعرف بعد.

سكتت هناء.

— هل نخرج؟

كان هذا السؤال أسهل لو جاء من موظف. في العمل يمكنها أن تقول: وفق النموذج، وفق المسار، وفق الاحتمال. مع أختها لم تكن هناك كلمات تحميها من معنى القرار.

— جهزي أمي. خذي دواءها والملف الأزرق. اذهبا إلى بيت أختنا في التل الآن، قبل أن تمتلئ الطرق.

— هل هذا أمر رسمي؟

نظرت ليان عبر الزجاج إلى مالك. كان يتحدث إلى رئيس البلدية، وإصبعه على الحي المنخفض.

— لا. هذا ما سأفعله لو كنت مكانك.

أنهت المكالمة، ونسخت سجلات التنبيه إلى ملف مستقل. أضافت اسمها وتوقيت الاكتشاف والإجراء الذي لم تنفذه. لم تعرف إن كان الاعتراف سيكلفها وظيفتها. عرفت أن حذفه قد يكلف شخصاً لا تعرفه بيته.

خرجت إلى غرفة القرار.

كان مالك يقول:

— أريد سبباً يمكنني الدفاع عنه أمام اللجنة.

وضعت الورقة أمامه.

— قبل اللجنة، تحتاج إلى سبب تستطيع الدفاع عنه أمام الحي.

رفع رأسه. لم تخفض عينيها هذه المرة.

— التأخر ست دقائق، قالت. بدأ تدريجياً بعد فشل مزمنة قبل ثلاثة أسابيع. أنا أغلقت التنبيه بعد إعادة التشغيل، ولم أنفذ الاختبار اليدوي الذي سجلته.

قرأ السطر الذي يحمل اسمها.

— لماذا؟

— لأن النظام عاد أخضر، ولأنتني اخترت العاجل على المهم. يمكنك أن تراجع ذلك بعد الليلة. الآن القراءة الحقيقية أعلى مما نراه بست دقائق، ومسار الخطر يتقدم على أوامرنا بالمدة نفسها.

قال فارس:

— هل يمكن استعادة الزمن الحقيقي؟

— من الخادم لا. من العوامة والقراءات اليدوية نعم، مع هامش خطأ. سأبني لوحة منفصلة.

نظر مالك إليها لحظة أطول مما يلزم. كان في وجهه غضب، لكنه لم يجد هدفًا واحدًا يضعه فيه. قال:

— افعلي.

استدارت، ثم سمعت صوته:

— ليان.

توقفت.

— ضعي في التقرير أنني أجلت طلب الاستبدال في الربع الماضي.

لم يكن اعتذارًا. ولم تكن تحتاج إليه الآن. هزت رأسها وعادت إلى جهازها.

بعد عشر دقائق ظهرت على الجدار شاشة جديدة، بلا ألوان مطمئنة ولا خطوط مصقولة. أرقام سوداء فوق خلفية بيضاء، وإلى جوار كل رقم وقت أخذه ودرجة الثقة فيه. سمّتها ليان «القراءة الحية».

لم تخف الشاشة شيئاً هذه المرة، حتى حين كانت الحقيقة أسوأ من كل ما أرادوا رؤيته.

المسار الثالث

لم يكن الخط الأزرق طريقًا واحدًا.

خرج من جسم الخزان إلى الشرق، انقسم تحت سفح الجبل، ثم عاد فالتقى بجري السرو أسفل الحي المنخفض بثلاثة كيلومترات. وعلى الخريطة الحديثة لم يكن في ذلك الموضع غير مساحة رمادية كُتب عليها: «منشآت سابقة للتشغيل».

قال فارس:

— هذه قناة التحويل القديمة. أغلقت قبل افتتاح السد.

سألت ليان وهي تقرب الرسم:

— أغلقت كيف؟

— بجدار خرساني عند المدخل، وردم عند المخرج.

قال كريم:

— هذا ما كُتب في تقرير التسليم. أما ما نُفذ فشيء آخر.

نظر إليه مالك. قبل ساعة واحدة كان سيعتبر الجملة طعناً في الهيئة، وربما طعناً فيه. الآن قال:

— اشرح.

مد كريم إصبعه إلى انحناء صغيرة في الخط.

— حين ارتفع منسوب المياه في سنة الإنشاء الأخيرة، لم يسمح الوقت بصب الجدار كاملاً. ركبت بوابة عزل فولاذية، ثم صب أمامها حاجز أرق. كان المفترض أن يملأ المقاول الفراغ بعد موسم الأمطار. لا أذكر أن أحداً عاد إليه.

قال فارس:

— لو بقي فراغ بهذا الحجم لظهر في فحص الموجات.

— فحصتم جسم السد، لا قناة التحويل. أخرجت من نطاق الصيانة قبل أن نتسلم أنت التشغيل.

دفع مالك الصفحة السابعة عشرة نحو ليان.

— أين يظهر هذا في نموذج سامي؟

أجابت وهي تقلب بين طبقات الرسم:

— هنا. لم يسمَّه قناة التحويل. كتب «المسار الثالث»، ووضع معامل احتكاك لا يناسب قناة مردومة. كأنه كان يفترض بقاء جزء منها مفتوحاً.

— افترض أم قياس؟

— لا أعرف بعد.

اقتربت الساعة الرقمية في أعلى الشاشة من منتصف الليل. تحتها ظهر تقدير جديد: سبع عشرة دقيقة إلى بدء الفيضان فوق الحافة. قال فارس:

— حتى لو كانت القناة موجودة، فتحها الآن قد ينقل الانهيار إلى الجهة الشرقية. لا نعرف حالة الجدران، ولا إن كان المخرج خالياً.

رد كريم:

— المخرج يقع بعد آخر بيت في الحي المنخفض.

— كان يقع. المدينة تغيرت خمسة عشر عاماً.

قال مالك:

— نحتاج صورة حديثة.

أرسل فارس الطلب إلى مركز المسح. قالت ليان:

— ونحتاج أن نعرف وضع بوابة العزل. النموذج يفترض أنها نصف مفتوحة عند البداية، ثم تفتح بالتزامن مع البوابتين الثانية والثالثة. إن كانت مغلقة تماماً فلن يعمل التسلسل. وإن كانت متأكلة قد تنهار دفعة واحدة.

— هل يعطينا النموذج كمية كافية؟

— إذا صح كل شيء فيه، يخفض ذروة الضغط اثنين وعشرين في المئة.

— وإذا أخطأ؟

رفعت عينها إليه. كان السؤال قديماً في الغرفة، لكن طريقته في طرحه كانت جديدة. لم يكن نخاً ليجعلها تتراجع عن رأيها. قالت:

— إذا أخطأ في قطر القناة، لن نكسب إلا دقائق. وإذا أخطأ في تماسك الحاجز، قد نفقد التحكم في الجريان الشرقي. لا أستطيع أن أوصي بالفتح قبل التحقق من موضع البوابة.

قال فارس:

— لا يمكن الوصول إليها من الخارج. مدخلها في ممر الخدمة الشرقي.

عمّ الصمت لحظة. كان ذلك الممر متصلًا بالممر الذي مات فيه سامي، وإن فصلت بينهما بوابتان وسلا لم إسمنتية. عرف مالك نظراتهم قبل أن يرفع رأسه. لم ينظر أحد إليه مباشرة، لكن الجميع تركوا له مساحة لا تحتاجها الطاولة.

قال:

— ما الذي يلزم للتحقق؟

أجاب فارس:

— فريق صيانة، جهاز غاز، كاميرا ليفية، واتصال سلكي. الراديو ينقطع بعد المنعطف الثاني.

قال كريم:

— وهناك باب داخلي لا يظهر في المخطط الجديد.

— من أين تعرف؟

— لأن سامي صممه.

ظهرت صورة المسح على الشاشة قبل أن يرد مالك. أظهرت الأرض شرق السد وقد تحولت إلى منطقة مستودعات صغيرة وساحة حاقلات مهجورة. رسم النظام خطأً أحمر من موضع المخرج المفترض إلى قناة السرو الجديدة.

قالت ليان:

— إذا كان المخرج هنا، فالماء لا يدخل الحي. لكنه سيمر قرب طريق الإخلاء الساحلي.

اتصل مالك بقائد الطوارئ، وطلب إغلاق الطريق وإخلاء الساحة. ثم وضع الهاتف على الطاولة.

— كم نحتاج لنعرف إن كانت القناة مفتوحة؟

قال فارس:

— اثنتي عشرة دقيقة إذا كان الباب الداخلي يعمل.

— ولدنا سبع عشرة.

قالت ليان:

— هذا التقدير مبني على قراءة متأخرة. قد تكون لدينا إحدى عشرة فقط.

أدار مالك وجهه نحو اللوح الزجاجي. خلفه كانت صورة سامي معلقة فوق صف الشاشات، مبتسماً ابتسامة التقطها المصور قبل أن يطلب منه أن يصبح جاداً.

كان يمكن للمالك أن يأمر بالدخول، ثم يحمل وحده اسم القرار. كان ذلك ما يعرفه الجميع عنه، وما عرفه عن نفسه. لكنه قال:

— أريد اعتراضاتكم الآن. لا بعد أن نبدأ.

تكلم فارس أولاً عن ضعف التهوية. وتحدثت ليان عن احتمال خطأ النموذج. وقال مسؤول السلامة إن الوقت لا يكفي لمسح الممر كله. أما كريم فقال:

— أخطر ما يمكن أن تفعله هو أن تدخل لتكفر عن شيء قديم. الممر لا يعرف نيتك.

لم يغضب مالك. شعر بالغضب يصعد، عرفه، ثم تركه يمر دون أن يمنحه لسانه.

— صحيح. لهذا لن يدخل أحد بلا خطة خروج. نظر إلى الساعة.

— أعطوني الخطة في ثلاث دقائق.

على طرف الصفحة السابعة عشرة، تحت جدول الأرقام، ظهرت كتابة سامي باهتة حتى كادت تضيع: «ليس مخرجاً احتياطياً. إنه مسار ثالث حين يصير الخياران كلاهما سيئاً».

الباب الذي يحمل اسمه

وجدوا رسم الباب في خزانة معدنية لم تُفتح منذ نقل أرشيف الإنشاء إلى المبنى الجديد.

كان فارس يقبّل الملفات، وليان تصوّر كل صفحة وترسلها إلى شاشة القرار، بينما وقف كريم عند المخطط المثبت على الجدار كأنه يعيد ترتيب مكان لم يدخله منذ خمسة عشر عاماً. سحب ورقة طويلة مطوية ثماني مرات، ونفض عنها غباراً رمادياً.

في الزاوية اليمنى ظهر توقيع صغير: «تصميم م. سامي نصار — آلية تشغيل يدوي لبوابة التحويل الشرقية».

قرأ مالك الاسم ولم يلمس الورقة.

قالت ليان:

— الآلية ليست على البوابة نفسها. العجلة في غرفة جانبية، وتنقل الحركة بسلسلة وتروس إلى محور العزل. لهذا يمكن تشغيلها من دون الوقوف أمام الجدار.

سأل فارس:

— لماذا لا تظهر في سجل المعدات؟

قلب كريم المخطط إلى صفحة الملاحظات.

— لأنها صُنفت «تركيباً مؤقتاً». سامي طلب تحويلها إلى نظام دائم بعد الاختبار. الطلب لم يعتمد.

وجد مالك الخانة الأخيرة. كان اسم المراجع فيها اسمه، لكن التوقيع لم يكن توقيعه. كتبت كلمة «مؤجل» بخط إداري منتظم، من غير تاريخ.

قال:

— من كان يملك صلاحية التأجيل غيري؟

قال فارس:

— مدير المشروع ونائبه. في ذلك الوقت كان المدير في المستشفى.

— ونائبه؟

لم يجب أحد. قال كريم:

— فؤاد مرعي.

تذكر مالك الرجل: مديراً متقاعداً تُعلّق صورته في مدخل الهيئة كل عام في ذكرى الافتتاح. كان رئيس لجنة التحقيق التي حملت

كريم مسؤولية الدخول غير المصرح به، وأغلقت ملف الحساسات بوصفه خللاً لم يثبت ارتباطه بالوفاة.

قالت ليان:

— العجلة تعطينا فرصة، لكنها لا تجيب عن سؤال حالة القناة.

دخل سليم نادر، رئيس فريق الصيانة الليلي، يحمل خوذة وحقيبة أجهزة. كان رجلاً عريض الكتفين، فقد طرف إصبعين في ورشة قبل سنوات، ولم يسمح لأحد أن يصفه أمامه بأنه حادث قديم.

قال:

— الممر الشرقي قابل للدخول حتى النقطة ثمانية. بعد ذلك لا ضمان.

— من معك؟ سأل مالك.

— هادي للكهرباء، ونبيل للسلامة، وأنا.

— وأنا.

رفع فارس رأسه فوراً.

— تحتاجك الغرفة هنا.

— تحتاج قائد قرار عند العجلة أيضاً.

قال سليم بلا تردد:

— إذا دخلت بصفتك كبير المهندسين، تتبع أوامري داخل الممر.

انتظر الجميع رد مالك. نظر مالك إلى الرجل، ثم قال:

— نعم.

أخرج سليم ورقة صغيرة وبدأ يكتب أسماء الفريق. قال:

— إذا تجاوز الغاز الحد، نخرج. إذا فقدنا الاتصال أكثر من تسعين ثانية، نخرج. إذا رأى نبيل شقاً يتحرك، نخرج. لا أحد يفاوضني هناك.

قال مالك:

— وليان توقف تسلسل الفتح من هنا إذا خرجت القراءة عن المجال، ولو قلت لها أن تستمر.

نظرت ليان إليه كأنها لم تسمع جيداً.

— أريدها مكتوبة، قال.

كتب فارس الصلاحيات على لوحة العمليات. تحت اسم كل عضو وضع كلمة: «إيقاف». لم تكن الكلمة معتادة في غرفة اعتادت أن تنتهي الأوامر فيها عند مالك.

قال كريم:

— سأبقى عند المخطط. أعرف ترقيم سامي أكثر من أي شخص سيدخل.

سأله مالك:

— تستطيع توجيههم من هنا؟

— إذا وصلنا الخط السلكي.

— افعل.

رن هاتف فارس. استمع، ثم فتح مكبر الصوت. جاء صوت قائد الإخلاء متقطعاً بين صفارات السيارات:

— الطريق الساحلي مغلق. لكن عندنا مشكلة في محطة الضخ القديمة. باب الخدمة مفتوح، والماء يدخل النفق الجنوبي. فقدنا اثنين من فريق البحث في الداخل.

رفع مالك عينيه.

— ذلك الباب لا يفتح إلا ببطاقة الهوية.

قال الصوت:

— وجدنا أثر كسر عند القفل.

تحرك شيء في وجه كريم، لكنه لم يتكلم. تذكر البطاقة التي سقطت من جيب آدم، وتذكر أنه أعادها إليه.

قال مالك:

— أرسلوا فريقاً ثانياً من المدخل المرتفع. لا يدخل أحد من الباب المفتوح. وأعطوني أسماء المفقودين.

وصل عامل يحمل بكرة كابل سميك. ثبت طرفها في لوحة الاتصال، ثم أعطاهم سماعات صغيرة. على الشاشة، هبط تقدير الوقت فجأة من أربع عشرة دقيقة إلى تسع.

قالت ليان:

— وصلت القراءة اليدوية الجديدة.

لم يعد في الغرفة مكان لسؤال يمكن تأجيله.

أمسك مالك الخوذة. وفي الممر المؤدي إلى المصعد السفلي مرّوا أمام باب فولاذي صغير، مطلي بالأصفر الباهت. كانت عليه لوحة صدئة لم يرها مالك من قبل:

«الباب ش-3 — تصميم سامي نصار».

مرر أصابعه فوق الاسم.

قال سليم من خلفه:

— القاعدة الأولى: لا تتوقف عند الأبواب.

سحب مالك يده.

— افتحه.

البيت ذو الباب الأخضر

قبل أن يصل بلاغ محطة الضخ إلى غرفة القرار بسبع دقائق، كان يوسف العابد يشق طريقه في السوق بقارب إنقاذ مطاطي لا يتسع إلا لأربعة.

كان يوسف العابد رجلاً في الثامنة والثلاثين، يعرفه رجال الدفاع المدني باسم أبي ناصر، ويعرفه أهل الحي بأنه أول من يصل حين تشتعل شقة وآخر من يأكل حين تنتهي وليمة. جلس آدم في مقدمة القارب إلى جوار عمر المصاب، بينما كانت سلمى تضم حقيبة زوجها إلى صدرها بعدما استعادها أحد الجيران من نافذة البيت.

قال آدم:

— المدرسة في الجهة الأخرى.

أجابه يوسف العابد:

— الطريق غرق. سنأخذكم إلى السطح المرتفع عند المحطة.

انتفض آدم.

— لا. المحطة مغلقة.

نظر إليه الرجل.

— كانت مغلقة.

دفع القارب بعصاه بين مظلتين سقطتا في الماء. عند نهاية الشارع ظهر مبنى محطة الضخ القديمة. كان باب الخدمة مفتوحاً حتى نهايته، يضرب الجدار مع كل موجة. اندفع الماء عبره إلى الأسفل بصوت لا يشبه ماء شارع؛ كان صوت حفرة تبتلع. توقف آدم عن التنفس لحظة.

حين خرج هو وصديقه قبل الصفارات، علق الباب بحجر صغير حتى لا يغلق عليهما إذا عادا إلى الكاميرا. تذكر الحجر بوضوح: مثلث أبيض من الرخام المكسور. كان قد فكر في إزالته، ثم صاح عمر بأن الحقيبة سقطت، فركض ونسي.

الآن لم يعد الحجر ظاهراً، لكن الباب لم يكن يحتاج إليه. ضغط الماء لوى المفصلة السفلى، وصارت الفتحة مجرى يدخل منه السيل إلى شبكة الأنفاق.

قال يوسف العابد عبر جهازه:

— المحطة اثنا عشر. باب الخدمة الشرقي مفتوح. عندنا جريان قوي إلى النفق الجنوبي.

جاءه صوت يقول إن فريق بحث دخل قبل دقائق للعثور على حارس المحطة ولم يعد.

نظر آدم إلى البطاقة في جيبه. لو قال الآن إن الباب فتح بها، فسيسألونه كيف حصل عليها، ولماذا كان هنا، ومن دخل معه. وسيتصل أحدهم بأبيه. تخيل الصمت الذي يسبق صوت مالك حين يغضب، فشعر أن الكلمات تتراجع إلى مكان أعمق من الخوف.

قال كريم، الذي كان يسير على الحافة المرتفعة إلى جوار القارب:

— لا تدخل من هنا. المدخل الشمالي أعلى بنحو مترين.

قال يوسف العابد:

— الطريق إليه خلف البيوت.

— أعرف ممراً من البيت ذي الباب الأخضر.

نظرت سلمى إليه.

— لن تمرؤا في بيتي بأحدتكم هذه.

ضحك رجل الإنقاذ رغم التوتر.

قال كريم:

— نخلعها إذا وصلنا، يا خالة.

دخلوا من النافذة الخلفية بعدما صار الباب الأخضر تحت الماء. قادهم كريم عبر مطبخ صغير إلى فناء ضيق، ومنه إلى درج حجري يصعد بين بيتين. بقي آدم مع صديقه وسلّمى فوق السطح، بينما عبر فريق الإنقاذ إلى المدخل الشمالي.

بعد أربع دقائق أخرجوا حارس المحطة فاقد الوعي. وبعده خرج رجل من فريق البحث يسعل ماءً أسود. أما الثاني فلم يكن معهم. قال يوسف العابد:

— بقي مروان.

حاول العودة، لكن كريم أمسك سترته.

— السقف يهتز.

— أعرفه منذ التدريب.

— وابنه يعرفك. لا تجعله يفقد كما معاً.

نظر يوسف إليه لحظة، ثم طلب الكاميرا الحرارية من الفريق الثاني. أدخلوها من فتحة تهوية، فرأوا بقعة حرارة عند سلم جانبي. كان مروان متعلقاً بدرابزين تحت سطح الماء بقليل. وصلوا إليه بجبل من الأعلى، لا من الباب المفتوح.

حين خرج حياً، صفق الناس فوق الأسطح، لكن آدم لم يستطع
النظر إليهم. ظل يرى الباب يضرب الجدار.

اقترب كريم منه وقال بصوت لا يسمعه سواه:

— البطاقة معك؟

وضع آدم يده على جيبه.

— نعم.

— هل فتحت بها هذا الباب؟

فتح فمه. في تلك اللحظة رن هاتف كريم من غرفة الطوارئ. نظر
الرجل إلى الاسم، ثم إلى الماء الذي ارتفع درجة أخرى على السلم.
قال آدم:

— لا أعرف.

لم تكن إجابة، لكن كريم لم يجبره. قال فقط:

— ستعرف. والسؤال لن يختفي لأننا مشغولون الآن.

سَلَّم القارب إلى يوسف العابد، ثم انطلق نحو السيارة التي جاءت
لتعيده إلى السد.

بقي آدم فوق البيت ذي الباب الأخضر، وبين يده والبطاقة طبقة قماش رقيقة. أعاد البطاقة إلى جيبه. بدت أخف من أن تكون سبباً لكل هذا، وأثقل من أن يخرجها الآن.

صمت الأم

عند الباب ش-3، وبينما كان سليم يفحص الهواء خلف الفتحة الأولى، اتصلت صفية مرة أخرى.

كاد مالك يرفض المكالمة. لم يكن أمام الفريق إلا دقائق، وكان صوت الهواء في الممر يشبه زفيراً يخرج من صدر الجبل. لكنه تذكر جملتها: لا تغلق الحقيقة مرة أخرى.

أجاب وهو يثبت المصباح في خوذته.

— عندي دقيقة يا أمي.

قالت:

— كانت عندي خمس عشرة سنة، ولم أستخدمها. خذ أنت الدقيقة.

أشار سليم إلى الفريق أن يواصل الفحص من دونه خطوتين فقط.

قالت صفية:

— جاءني سامي بعد المغرب في الليلة التي مات فيها. كان مبتلاً وغاضباً منك.

أغلق مالك عينيه. سمع السلسلة المعدنية تُسحب داخل الباب.

— أعرف أنه جاءك.

— لا تعرف ما قال.

— قال إنني لم أقرأ تقريره.

— قال أكثر. قال إنه أخطأ حين دخل الممر في الفحص السابق من غير تصريح. وقال إن كريم هدهد بإبلاغ الإدارة إن فعلها ثانية.

فتح مالك عينيه.

— هدهد؟

— بهذه الكلمة قالها سامي لأنه كان غاضباً. ثم ضحك وقال إن كريم يخاف عليه أكثر مما يخاف على وظيفته.

في سماعة مالك جاء صوت ليان من غرفة القرار:

— اختبار الاتصال.

أجابها:

— أسمعك.

ثم قال لأمه:

— لماذا لم تقولي هذا في التحقيق؟

طال صمتها حتى ظن أن الخط انقطع.

— لأنك دخلت عليّ في الفجر وقلت إن كريم أرسله إلى موته. لم تسألني ماذا قال سامي. أخبرتني بما يجب أن أصدقه، وكنت قد فقدت ولدًا ولم أقدر أن أخسر الآخر في اللحظة نفسها.

استند مالك إلى الجدار البارد.

— وبعد ذلك؟

— كلها مر يوم صار الكلام أصعب. رأيتك تبني حياتك فوق القصة. رأيت الناس يرفعونك لأنك واجهت المقصرين. وقلت لنفسني إن جملة قالها سامي غاضباً لن تعيده، وإنك لو كنت مخطئاً فالله يعلم ما في قلبك.

توقفت، ثم أضافت:

— كنت أستخدم علم الله عذراً حتى لا أقول ما أعرفه أنا.

لم يجد مالك جواباً. في آخر الممر، رفع سليم إصبعين: بقيت ثلاثون ثانية قبل الدخول.

قالت صفية:

— لم يكن سامي بريئاً من العناد. كان يريد أن يثبت لك أنه على حق قبل أن يطلع الصباح. لكنه لم يذهب لأن كريم دفعه. أعرف هذا.

— هل قال لماذا سيعود إلى السد؟

— قال إن بينكما جملة لم تكتمل.

سمع مالك أخاه كما كان يسمعه عند باب غرفتهما القديمة: سريعاً، متحمساً، يضع ثلاث أفكار في نفس واحد ثم يغضب لأن الآخرين لم يلحقوا به.

قال:

— ما الجملة؟

— لم يقل. أعطاني مفتاحاً صغيراً وقال: إذا تأخرت، فليفتحه مالك.

مد مالك يده إلى جيبه بلا وعي، كأن المفتاح قد يكون فيه.

— أين هو؟

— في علبة الخياطة. خفت أن أعطيك إياه بعد موته، ثم خفت أن أتخلص منه.

قال سليم:

— تحرك الآن.

قال مالك لأمه:

— سيأتيك فارس ليأخذه.

— وأنت؟

نظر إلى الباب الذي يحمل اسم أخيه.

— سأدخل من باب صنعه سامي، لكنني لن أدخل وحدي.

قالت صفية:

— ارجع يا مالك. لا أريد أن تجعل اعترافك عقوبة جديدة لي.

كانت تلك الجملة أقسى من كل ما قاله كريم. أجابها:

— سأرجع إن شاء الله. وسنكمل من حيث سكتنا.

أنهى المكالمة. أعطاه سليم قناع الطوارئ، ثم نظر إليه ليتأكد أن عينيه هنا لا قبل خمسة عشر عاما.

— من يقود داخل الممر؟

قال مالك:

— أنت.

— ومن يوقف المهمة؟

— أي واحد منا.

فتح سليم الباب. اندفع هواء رطب تفوح منه رائحة الحديد والماء القديم. تقدم الفريق، وبقي اسم سامي وراءهم على اللوحة الصدئة، مضاءً لحظة بمصباح مالك ثم غاب.

العامل القديم

كان مراد العلي قد تجاوز السبعين حين سمع صفارات رواصي تعود بعد اثني عشر عاماً من الصمت.

أغلق دكان إصلاح المضخات الصغير، ووضع في جيبه دفترًا جليدياً احتفظ به منذ عمله في السد، ثم سار إلى الحاجز الأمني عند مبنى الهيئة. رفض الضابط إدخاله مرتين. في الثالثة أخرج مراد صورة قديمة لفريق الإنشاء، وأشار إلى الرجل الواقف بين سامي وكريم.

— أنا الذي ركبت سلسلة البوابة الشرقية. إذا كانوا يفكرون في تحريكها، فسيحتاجون إلى عدد الأسنان قبل أن يحتاجوا إلى اسمي. وصل الخبر إلى فارس، فأمر بإحضاره إلى غرفة القرار.

في الممر الشرقي، كان مالك يمشي خلف سليم على أرض مائلة
تغطيها طبقة رقيقة من الماء. وصل الفريق إلى النقطة الرابعة،
حيث انتهت الإضاءة الثابتة وبدأت كشافتهم ترسم دوائر
متحركة على الجدران.

جاء صوت فارس في السماعه:

— عندي مراد العلي.

قال سليم:

— قل له إن الترس الناقل فيه ستة وثلاثون سنًا أم أربعون؟ الرسم
غير واضح.

سمعوا صوتًا أجش يقترب من الميكروفون:

— أربعون في الأول، وستة وثلاثون في الثاني. وإذا أدركتم العجلة
كأنها صمام ماء عادي ستكسرون مسمار الأمان.

ابتسم سليم للمرة الأولى.

— قلت لهم إنك لم تمت بعد يا عم مراد.

— وأنت ما زلت تستعجل كأن قطع إصبعيك لم يعلمك شيئًا.

أملى عليهم الرجل تسلسل الفحص: ثلاث لفات عكسية لتخفيف صدأ الحمل، ثم قياس المقاومة، ثم اثنتا عشرة لفة لا أكثر قبل تفقد السلسلة. كان يتحدث من ذاكرة يده، لا من الورق.

عند النقطة السادسة وجدوا صندوق أدوات مثبتاً في الجدار. في قفله فتحة صغيرة غير مألوفة. أرسل مالك صورته إلى غرفة القرار. قال مراد:

— هذا قفل سامي. كان يكره أن تترك أجهزة القياس مكشوفة. صنع له حداد الورشة مفتاحاً من النحاس.

نظر فارس إلى المفتاح الذي وصل لتوه من بيت صفية في ظرف أبيض.

— معنا مفتاح نحاسي.

طلب سليم ألا يدخل أحد إلى المسافة الأخيرة قبل فحص الشقوق. جلس مالك على حافة إسمنتية، والماء يصل إلى نعل حذائه. قال لمراد:

— كنت في السد ليلة مات سامي؟

تغير صوت الرجل.

— كنت في وردية المساء. خرجت قبل الحادث بساعة.

— هل رأيته؟

— رأيته يتجادل مع كريم عند بوابة الممر.

سأل كريم من غرفة القرار:

— هل سمعت ما قلناه؟

— سمعتك تقول له: لن تدخل وحدك، وإذا حاولت سأبلغ السلامة.

نظر فارس إلى كريم. قال مالك:

— لماذا لم تظهر شهادتك في التحقيق؟

— ظهرت. جلست ثلاث ساعات وقلت كل شيء. في المحضر النهائي كتبوا أنني شهدت «خلافاً منهياً» بينكما. طلبت تعديل العبارة، فقالوا إن الخلاف لا يغير سبب الوفاة.

قال كريم:

— ولماذا لم تذهب إلى مالك؟

— ذهبت إلى مكتبه بعد أسبوع. لم يسمح لي بالدخول.

وصلت الجملة إلى مالك في الممر كأن الباب القديم أغلق مرة أخرى. تذكر أيام العزاء، والطابور الطويل لمن أرادوا مصاحفته، والتعليمات التي أعطاها لسكربتيره: لا أريد أحداً من فريق كريم.

قال مراد:

— لا أقول إنك وحدك أغلقت الباب يا مالك. كنا جميعاً نريد سبباً له اسم ووجه. الماء والحديد والتأجيل لا نستطيع أن نصرخ فيها. أما الرجل فيمكن أن نضعه أمامنا ونقول: هذا هو.

سأل مالك:

— وهل كان كريم بريئاً؟

أجاب مراد بعد صمت:

— من ماذا؟ من أنه لم يمسك سامي بيديه؟ نعم. من أنه عرف أن نظام الحساسات ناقص ولم يوقف التسليم؟ لا. من أنه صمت بعد أن ظلموه؟ أسأله.

قال سليم:

— الفحص نظيف حتى النقطة الثامنة. سنصل إلى الصندوق.

أدخل فارس المفتاح النحاسي في مركبة صيانة صغيرة وأرسله مع عامل إلى المدخل. احتاج وصوله ثلاث دقائق. خلال ذلك شرح مراد أن العجلة قد تعطيهم إنذاراً واحداً فقط: إذا صدر عنها صوت طرق متباعد فعليهم التوقف، لأن السلسلة تقفز فوق الأسنان.

حين فتح سليم الصندوق، وجدوا داخله عداد مقاومة قديماً، وبكرة شريط تسجيل صغيرة داخل كيس محكم، ودقتر تشغيل غطاه العفن عند الأطراف.

قال مراد:

— هذا مسجل سامي الميداني.

أخذه هادي، فوجد أن الشريط مقطوع قرب بدايته.

في غرفة القرار قال فارس:

— نستطيع استعادته. عند المختبر جهاز قديم.

قال كريم:

— لا وقت لذلك.

قال مالك:

— أرسل نسخة رقمية حين تجهز. لا توقفوا العمل.

أعاد سليم نظره إلى الممر. خلف النقطة الثامنة انخفض السقف، وازداد صوت الماء حتى صار الكلام بلا سماعات مستحيلاً.

قال:

— التحقق الأول انتهى. القناة موجودة، والهواء يتحرك من جهة المخرج. نعود الآن قبل فتح البوابات.

لم يعترض مالك. كان أول اختبار للخطّة، وأول مرة يبتعد فيها عن جواب لم يحصل عليه لأن العودة الآمنة صارت أهم من مطاردة الحقيقة خطوة أخرى.

وقبل أن يستدير، سمع مراد يقول عبر السماعه:

— يا مالك، بقي شيء.

— قل.

— سامي لم يكن يحمل جهاز القياس حين رأيته. كان يحمل المسجل فقط. هذا يعني أنه لم يدخل ليصلح الحساس. دخل ليسجل ما يحدث عندما تتحول القراءة إلى الخادم الاحتياطي.

نظر مالك إلى الماء عند قدميه.

— كان يريد دليلاً يسمع.

قال مراد:

— كان يريد دليلاً تسمعه أنت.

التسجيل المكسور

استغرق إصلاح الشريط ثماني دقائق، وهي مدة بدت في المختبر أقصر من أن تصلح شيئاً وأطول من أن تحملها المدينة.

قص الفني الجزء المتعفن، وصل الطرفين بشريط رقيق، ثم مرر الصوت عبر جهاز يزيل طقطقة الماء ولا يخترع الكلمات المفقودة. ظهرت على الشاشة موجات متقطعة، بينها فراغ أسود يمتد إحدى عشرة ثانية.

وصل الفريق إلى غرفة القرار حين بدأ المقطع الأول.

خرج صوت سامي شاباً أكثر مما احتمله مالك. قال رقم النقطة والوقت، ثم وصف انتقال النظام إلى المسار الاحتياطي. جاء صوت كريم بعيداً:

«اخرج من هناك.»

رد سامي بشيء أكلته الطقطقة.

ارتفع صوت كريم:

«إذا دخلت مرة أخرى فسأتركك في الممر...»

ثم انقطع الشريط.

نظر الجميع إلى كريم.

قال الفني:

— القطع أصلي. الشريط تمزق هنا، وربما دار جزء منه داخل البكرة.

قال فارس:

— هل توجد نسخة أخرى؟

— لا أعرف.

لم يتحرك كريم. كان واقفاً عند الخريطة، ويداه على حافتها.

قال مالك:

— ماذا قلت بعد ذلك؟

— قلت له: سأتركك في الممر حتى يأتي فريق السلامة ويخرجك أمام الجميع. كنت أهدده بالفضيحة كي يتوقف.

— ولا أحد يسمع هذا الآن.

— لا.

دخل موظف الإعلام يحمل هاتفًا. على شاشته كان المقطع نفسه، منشورًا في حساب محلي بعنوان: «الصوت الأخير للمهندس سامي نصاريكشف من هدهده».

قال:

— وصل إلى ثمانية آلاف مشاركة خلال دقيقتين.

سأل فارس:

— من سرّبه؟

— الملف خرج من المختبر إلى خادم الطوارئ. عشرات الأشخاص يملكون الوصول.

ضرب فارس الطاولة بكفه.

— أغلقوا الخادم.

قال مالك:

— لا. نحتاجه للتشغيل. اسحبوا صلاحية التنزيل واحتفظوا بسجل الدخول.

نظر إلى كريم.

— هل تستطيع البقاء؟

ابتسم كريم ابتسامة صغيرة بلا فرح.

— بقيت خمس عشرة سنة. أظني أستطيع بضع دقائق.

وضع الفني البكرة تحت عدسة مضيئة. قال إن جزءًا من الشريط انزلق إلى التجويف الداخلي وربما يحتوي على ما بعد القطع. بينما كان يفك الغطاء، أظهرت شاشات المدينة تجمعات قرب السوق المؤقت. بدأ الناس يرددون اسم كريم.

رن هاتفه. كانت أخته ريم.

— أبي، هناك رجال أمام البيت.

خفض صوته:

— أين أمك؟

— معي. الشرطة تقول ابقوا في الداخل.

— ابتعدوا عن النوافذ.

سمع مالك الكلمات. مد يده إلى هاتف الطوارئ، لكن كريم قال:

— لا تجعلهم يحرسون بيتي ويتركون الإخلاء.

— لن أبادل حياة بحياة.

أمر بإرسال دورية من وحدة الطرق التي انتهت من إغلاق المسار الساحلي، لا من فرق الإنقاذ. ثم طلب من موظف الإعلام أن يجهز بثاً قصيراً.

قال فارس:

— قبل أن نعرف بقية التسجيل؟

— سأقول ما نعرفه، لا ما نتمنى أن يكون.

رفع الفني شريطاً بنياً رقيقاً بالملقط.

— وجدت لفة داخلية. لكنها مسجلة فوق مقطع آخر. سيختلط الصوتان.

بدأ التشغيل.

سمعوا أولاً ضجيج آلة، ثم صوت سامي يقرأ أرقاماً. تحت صوته كان حوار آخر أقدم. التقط البرنامج طبقة واحدة، وخرجت جملة كريم مكتملة:

«إذا دخلت مرة أخرى فسأتركك في الممر حتى يأتي فريق السلامة. لن أعطي عليك كما فعلت المرة الماضية.»

ثم صوت سامي:

«وأنا لن أعطي على تسليم نظام نعرف أنه يكذب.»

جاء صوت كريم:

«أوقفنا التسليم إذن.»

«مالك لن يوقفه من أجل تقرير يحمل اسمي.»

ثم صوت ثالث، كان مالك نفسه، مسجلاً من جهة الهاتف أو جهاز قريب:

«لا تستخدم اسمي لتبرر تهورك. إما أن تثبت التأخر بقياس مستقل قبل منتصف الليل، أو ينتهي النقاش.»

ساد الصمت.

تذكر مالك الجملة، لكن ذاكرته كانت قد حذفت نهايتها. لم يقل لسامي: ادخل الممر. ومع ذلك منحه موعداً مستحيلاً في ليلة عاصفة، وهو يعرف أن القياس المستقل الوحيد موجود خلف نقطة الخدمة.

قال كريم:

— اتصلت به بعد ذلك وقلت له ألا يذهب.

— لماذا لم نتصل بي؟

— لأنني كنت غاضباً منك أيضاً. أردت أن يفشل التسليم في الصباح فتتحمل أنت النتيجة. ظننت أن سامي سيكتفي بالتهديد.

قال فارس:

— والمقطع المنشور لا يحتوي إلا على التهديد.

أجاب مالك:

— إذن ننشر المقطع كاملاً بعد توثيقه، لا قصاصة أخرى.

قال موظف الإعلام:

— حتى ذلك الوقت قد يصل الناس إلى بيت كريم.

نظر مالك إلى خريطة الفيضان، ثم إلى شاشة الشارع. كان عليه أن يدير الماء والغضب في اللحظة نفسها، وكلاهما وجد طريقاً قديماً حين فُتح له الباب.

خمسة عشر عاماً لكریم

حين غادر كريمة غرفة الاستماع، لم يتبعه أحد.

كان الممر المؤدي إلى السلم خالياً، وعلى أرضه آثار أحذية مبللة تتقاطع ثم تختفي عند المصعد. وقف أمام النافذة الضيقة في آخره. لم ير السد من هناك؛ رأى ضوء البرق فوق الجبال، وكلها لمع انعكس وجهه في الزجاج ثم غاب.

خمسة عشر عاماً وهو ينتظر صوت سامي. وحين عاد الصوت، لم يقل الجملة التي بناها كريمة في خياله مئات المرات. لم يقل: «كريمة بريء». لم يسم من فتح الباب ولا من أغلق البلاغ. خرجت كلمات متقطعة من شريط رطب، وفيها من الحقيقة ما يكفي لإعادة الأسئلة، لا لإسكاتها.

أخرج هاتفه. سبع عشرة مكلمة فائئة: زوجته نورة، أخته ريم، رقم المدرسة، ورقمان لا يعرفهما. فتح رسالة ريم.

«كريمة، الناس خارج البيت يصورون. نورة تقول لا نفتح لأحد. هل أنت فعلاً كنت تعرف أن عم سامي سيموت؟»

قرأها مرتين، ثم جلس على الدرجة العليا.

كانت ریم في الرابعة حين فصل من الهيئة. لم نتذكر رجال الصحافة عند الباب، لكنها تذكرت أن أهمها أزال لوحة الاسم من المدخل. في المدرسة، حين كبرت، صار لقب «حداد» كافياً ليهمس أحدهم باسم الحادث. انتقلت الأسرة مرتين. باع كرم الورشة الصغيرة التي افتتحها بعد الفصل عندما امتنع المقاولون عن التعامل معه. اشتغل في فحس مضخات المزارع، ثم في شركة بعيدة لا تسأل كثيراً ما دام يقبل السفر.

لم يكن بريئاً من كل شيء، وهذه كانت العقدة التي جعلت الدفاع عن نفسه أصعب. حذر سامي من الدخول، لكنه لم يقدم بلاغ إيقاف رسمياً. كان غاضباً من مالك ومن الإدارة، وقال لنفسه إن من يرفض سماع التحذير يتحمل نتيجته. حين دخل سامي الممر، تبعه كرم حتى الباب ثم تراجع لبحث عن مشرف. في الدقائق التي قضاها يثبت أنه ليس تابعاً لأحد، صار الرجوع مستحيلاً.

بعد الحادث، جلس أمام اللجنة الأولى وقال إن البوابة الشرقية أزيلت من السجل. سأله المحقق أين الصفحة التي ثبت ذلك. قال إنها في الملف. لم تكن. سأله لماذا لم يوقف سامي رسمياً. لم يملك جواباً يليق برجل يريد النجاة من تهمة. قال: «ظننت أنه سيعود». تحولت الجملة في المحضر إلى: «لم يتوقع خطراً مباشراً».

عرضت الهيئة تعويضاً مقابل إغلاق القضية. لم يسموه شراء صمت. قالوا إن التحقيق لم يثبت تعمدًا، وإن المدينة تحتاج إلى الاستقرار، وإن استمرار الطعن سيؤدي أسرة سامي. كانت نورة حاملاً، والبنك يطالب بالقسط، ومحاميه يقول إن الدعوى قد تمتد سنوات. وقّع على التنازل، ثم كره نفسه لأنه وقّع وكرههم لأنهم جعلوا التوقيع يبدو خياره الوحيد.

رن الهاتف في يده. نورة.

أجاب.

— هل أنتم بخير؟

— نحن في الحافلة. ريم معي. كسروا أصيص الليمون عند البوابة، لكن البيت بخير حتى الآن.

سمع أخته تقول في الخلف: «أعطني الهاتف».

قالت ريم:

— أخي، أجبني فقط: هل كنت تعرف؟

أغمض عينيه.

— عرفت أن هناك خللاً. لم أعرف أن سامي سيموت.

— لماذا يقولون إنك قتلته؟

— لأن القصة القصيرة أسهل من القصة الصحيحة.

— وما القصة الصحيحة؟

نظر إلى باب غرفة الاستماع. خلفه كان مالك يقف أمام بقايا صوت أخيه، وربما يبحث هو أيضاً عن جملة تبرئه أو تدينه وحده.

— الصحيحة أن رجالاً كثيرين رأوا أجزاءً من الخطر، وكل واحد ظن أن الجزء الذي عنده لا يكفي ليوقف العمل. وأنا واحد منهم.

سكت ريم.

— هل ستدخل السد معهم؟

— قد أضطر.

— بعد كل ما فعلوه بك؟

لم يجد جواباً سريعاً. تذكر البيت ذا الباب الأخضر، والبطاقة في يد آدم، ووجه يوسف وهو يطلب منه طريقاً إلى طفل غارق. لم يكن السد ملك مالك ولا الهيئة. خلفه مدينة فيها أناس لا يعرفون اسمه ولا يهتمهم إن استعاد سمعته الليلة.

— أنا لا أدخل من أجلهم، قال. أدخل لأن الماء لا يعرف من ظلمني.

جاء صوت نورة هادئاً:

— عد إلينا حياً. لا تجعل الحقيقة تأخذ منك ما بقي بعد أن أخذوا منها ما أخذوا.

وعدها أنه سيحاول. لم يقل أكثر من ذلك.

حين عاد إلى غرفة القرار، كان مالك يشرح مسار البوابات. رفع عينيه إلى كريم وتوقف. ترك كريم له لحظة السؤال، ثم قال:

— أعرف الممر الشرقي أفضل ممن بقي هنا. سأدخل إذا احتجتم.

— لست ملزماً.

— أعرف.

اقترب من الخريطة. لم تكن المصالحة قد بدأت، ولم ينتهِ الغضب، ولم يصبح الماضي أقل ظلماً. لكن المدينة لم تملك خمس عشرة سنة لتنتظر حتى تستقيم قلوبهم.

اسم في الشارع

خرج اسم كريم من الهواتف إلى الشوارع أسرع من صفارات الإخلاء.

في المدرسة التي تحولت إلى مركز إيواء، شاهد رجل المقطع ورفع الصوت حتى سمعته القاعة كلها. قالت زوجة أحد عمال المحطة إن هذا هو المهندس الذي قتل أخا مالك نصار ثم عاد الليلة إلى السد. قال آخر إنه رأى كريم ينقذ ولدين في السوق. رد شخص من الخلف بأن المجرم قد ينقذ إنساناً ليخفي جريمته.

كان آدم جالساً قرب عمر وصندوق الإسعافات. عرف صوت كريم فوراً، وعرف أن الجملة المبتورة لا تشبه الرجل الذي ربط الحبل حول خصره ودخل الماء من أجل صبي لا يعرفه. وقف وقال:

— المقطع ناقص.

التفت إليه وجوه كثيرة.

سأله الرجل الذي رفع الهاتف:

— وكيف تعرف؟

— لأنه أنقذني قبل ساعة.

— وما علاقة ذلك بما فعله قبل خمسة عشر عاماً؟

لم يجد آدم جواباً. تذكر كريم وهو يدخل الماء، ثم تذكر البطاقة في جيبه، ولم يعرف كيف يحمل الصورتين معاً.

قالت سلمى من فراشها:

— علاقته أنكم لا تعرفون الرجل، وتريدون أن تكسروا بابه لأن هاتفاً أمركم.

ضحك بعضهم، لكن ثلاثة رجال خرجوا من القاعة. تبعهم آخرون. على الشاشة عند المدخل ظهر بث مباشر لحشد يتجمع في شارع كريم.

اتصل آدم بأمه. كانت مها في مركز إخلاء آخر، تنظم أسماء الأطفال.

— أمي، الناس ذاهبون إلى بيت الرجل الذي أنقذني.

— أي رجل؟

— كريم حداد.

صمت.

— هل يعرف أبوك أنك كنت معه؟

— أبي لا يعرف أين كنت أصلاً.

— آدم، أين كنت؟

نظر إلى عمر، ثم إلى باب المدرسة.

— ليس الآن.

قالت لها بهدوء أوجعه أكثر من الصراخ:

— كل مرة تقول فيها «ليس الآن» يصبح قول الحقيقة أصعب.
أنا لا أطلب منك أن تحكي في وسط الماء. لكن لا تقل لنفسك
إنك ستنجو منها إلى الأبد.

انقطع الاتصال حين ضعفت الشبكة.

في غرفة القرار، كانت ليان تقرأ الأرقام بصوت واضح:

— البوابة الأولى تستجيب حتى اثني عشر في المئة. التدفق خفض
سرعة الارتفاع، ولدينا تقدير جديد: ثمان وعشرون دقيقة قبل
التجاوز.

قال فارس:

— جيد. نفتحها إلى عشرين.

— لا. المقاومة الميكانيكية ارتفعت عند اثني عشر. إذا واصلنا
قبل فحص الترس قد تعلق.

التفت إلى مالك. في الليلة الماضية كانت ستقول: «ربما ينبغي أن
ننتظر». الآن قالت:

— أوصي بالتوقف عند اثني عشر حتى يعود فريق الممر.

قال مالك:

— يعتمد.

لم يسأل فارس إن كان متأكداً. سجل القرار ووقت اتخاذه.

دخل موظف الإعلام.

— البث جاهز، لكن مكتب رئيس البلدية يطلب أن نتجنب ذكر التحقيق القديم. يقولون إن المدينة تحتاج رسالة موحدة.

قال مالك:

— الرسالة الموحدة التي تبدأ بحذف الحقيقة ستنتهي بكارثة ثانية.

— ماذا ستقول؟

— إن المقطع مبتور. وإن كريم يعمل معنا بأمر مني. وإن من يقترب من بيته يعرقل إنقاذ المدينة.

قال كريم:

— لا تقل بأمر منك. سيدو كأنك تحميني لأنك تحتاجني.

— أنا أحتاجك فعلاً.

— إذن قل الحقيقة الأخرى أيضاً: إنني أخفيت نسخة الصفحة خمس عشرة سنة.

نظر إليه مالك.

— لماذا تريد أن تمنحهم حجراً آخر؟

— لأنك إذا حميتني بنصف حقيقة فلن تختلف عمن اتهمني بنصف تسجيل.

أطفاً موظف الإعلام الميكروفون لحظة. خارج المبنى، كانت أسماء كثيرة تصرخ في الليل، لكن اسم كريم وحده صار له اتجاه: شارع ضيق في الحي المرتفع، ويبت تقف خلف نافذته زوجته وأخته.
قال مالك:

— سنقول ما ثبت. وما لم يثبت، سنقول إنه لم يثبت.

نظر إلى الساعة ثم إلى الكاميرا.

— افتح البث.

أمام بيت كريم

كان بيت كريم مبنياً على حافة الحي المرتفع، بواجهة حجرية وشجرة
ليون تجاوزت سورها القصير. حين وصل أول عشرين رجلاً،
كانت ريم قد أطفأت أضواء الغرف كلها إلا الممر.

قالت نورة، زوجة كريم:

— ابتعدي عن الباب.

— الشرطة في الخارج.

— الشرطة ثلاثة، وهم أكثر من خمسين الآن.

ارتفع صوت من الشارع:

— أخرج يا كريم!

صرخ آخر:

— دم سامي لا يغرق!

لم تعرف ريم سامي إلا من الصور التي وجدتھا في صندوق أخيھا:
شاب نحيل يتسم للكاميرا، يقف إلى جوار أخيھا أمام توربين

مفتوح. كانت قد سألت كريم مرة لماذا يحتفظ بصورة رجل اتهموه بقتله، فقال: «لأن ما قيل عنا لا يغير ما كنا نعرفه عن بعضنا».

ارتطم حجر بالسور، فسقطت ليمونة على الأرض.

في آخر الشارع ظهرت حافلة الإيواء، توقفت لأن الحشد سد الطريق. نزل منها يوسف العابد ومعه اثنان من رجال الدفاع المدني. كان قد سلم فريق الإنقاذ ثم سمع العنوان في جهاز الشرطة.

قال للحشد:

— افتحوا الطريق. عندنا مصابون.

رد رجل:

— خذهم من شارع آخر.

— الشارع الآخر تحت الماء.

تقدم يوسف حتى صار بين الناس والبوابة.

— هذا البيت ضمن مسار الإخلاء. من يرمي حجراً الآن يعرقلنا.

قال شاب يحمل هاتفه:

— أنت تدافع عن قاتل؟

— أنا أدافع عن باب خلفه مدنيون.

وصل آدم راکضاً من المدرسة رغم ألم صديقه الذي صاح به أن يعود. لم يكن يعرف ما الذي يظن أنه يستطيع فعله. وقف عند طرف الحشد وقال بأعلى صوته:

— كريم أنقذني من السوق!

لم يسمعه إلا القريبون. اقترب رجل وسأله:

— من أنت؟

— آدم نصار.

تغيرت الوجوه حوله. فتح الناس له ممراً صغيراً كأن اسم أبيه بطاقة أخرى تفتح الأبواب.

قال الرجل:

— ابن مالك؟

هز رأسه.

— كريم دخل الماء وأنقذني أنا وصديقي. لو كان أبي هنا لقال لكم...

توقف. لم يعرف ما سيقوله أبوه. قبل ساعات كان واثقاً أن مالك لن يسمع تفسيراً عن بطاقة مسروقة وباب مفتوح. لكنه رأى على

هاتف أحدهم بثاً جديداً: وجه أبيه في غرفة القرار، متعباً ومبلى الشعر، لا يقف خلف منصة ولا يحمل ورقة.

رفع الرجل الصوت.

قال مالك في البث:

«اسمي مالك نصار. سامي نصار كان أخي. والمقطع الذي ينتشر الآن لا يثبت أن كريم حداد دفعه إلى الموت. لدينا جزء آخر من التسجيل يثبت أن كريم حذره من دخول الممر وحده».

تعالّت أصوات اعتراض. رفع مالك يده في الصورة، لا ليسكتهم، بل كأنه يعرف أنهم لا يرونه ومع ذلك يحتاج إلى لحظة.

«هذا لا يبرئ كريم من كل تقصير مهني، ولا يبرئني أنا. لكنه يعني شيئاً واحداً واضحاً: لا حق لأحد أن يعاقب أسرته على قصة لم نكمل سماعها. كريم يعمل الآن ضمن الفريق الذي يحاول إنقاذ رواسي. قبل ساعة أنقذ ابني من الحي المنخفض، مع أنه كان يعرف اسمه».

نظر الناس إلى آدم.

أكمل مالك:

«من يريد نصرة سامي فلا يظلم رجلاً باسمه. ابتعدوا عن البيت، وافتحوا طريق الإخلاء. وبعد أن تنجو المدينة، سأضع أمامها كل ما أعرفه، بما فيه ما يحملني المسؤولية».

أغلق البث.

لم يتفرق الحشد دفعة واحدة. بعضهم خفض هاتفه، وبعضهم جادل، ورجل عند الخلف شتم الشرطة. لكن يوسف العابد حرك الحافلة ببطء، فاضطر الناس إلى فتح الطريق. وقفت مجموعة صغيرة أمام البيت، فصنعت الشرطة بينهم وبين البوابة صفًا.

فتحت ريم النافذة قدر إصبعين. رأت آدم تحت شجرة الليمون.

قالت له:

— ادخل قبل أن يعيدوا إغلاق الطريق.

نظر خلفه إلى المدرسة، ثم إلى البيت.

— أبي يعرف الآن أن كريم أنقذني.

— لكنه لا يعرف الباقي، أليس كذلك؟

لم يعرف كيف عرفت. ربما لأن الخوف له وجه واحد عند أبناء الآباء الصعبيين.

قالت:

— أخي صمت خمس عشرة سنة. لا أنصحك بالتجربة.

في تلك اللحظة جاء عبر مكبرات الطوارئ أمر جديد: على سكان الحي المرتفع الاستعداد لاستقبال دفعة أخرى من النازحين. تحرك الناس أخيراً، بعضهم نجلاً وبعضهم لأن خطراً أكبر ناداهم بأسمائهم جميعاً.

بقيت الليمونة التي أسقطها الحجر عند الرصيف، تدور في ماء ضحل وصل حتى شارع لم يكن أحد يتوقع أن يراه مبتلاً.

حماية الخصم

بعد البث، لم يشكر كريم مالك.

قال فقط:

— كان يجب أن تقول ذلك قبل خمسة عشر عاماً.

أجاب مالك:

— نعم.

كانت الكلمة أسهل من المرة الأولى وأثقل. لأن الاعتراف أمام رجل واحد يمكن أن يبقى بين جدارين، أما قوله للمدينة ففتح باباً لن يغلقه منصب ولا تقرير.

قال فارس:

- مكتب رئيس البلدية غاضب. يريدونك على الخط.
- بعد تسلسل البوابات.
- قالوا الآن.
- رفع مالك السماعة. جاء صوت رئيس البلدية مرتفعاً:
- من منحك صلاحية إعادة فتح قضية جنائية في بث طوارئ؟
- لم أفتح قضية. منعت اعتداء.
- حملت نفسك مسؤولية أمام آلاف الناس.
- لأن لي مسؤولية.
- المدينة تحتاج قائداً، لا متهماً جديداً.
- نظر مالك إلى ليان وهي تراجع منحنيات الضغط، وإلى سليم الذي ينزع سترته المبتلة بعد عودة الفريق، وإلى كريم الذي بقي عند المخطط بينما عائلته خلف حراسة الشرطة.

قال:

- المدينة عندها قادة كثيرون الليلة. وهذا أحد الأشياء التي كان ينبغي أن أفهمها قبل الآن.

أغلق الخبط قبل أن يحصل على إذن.

قلت ليان:

— فريق المسح أكد أن مخرج القناة غير مردوم بالكامل. يوجد انهيار جزئي، لكنه يترك مقطعا يكفي لستين في المئة من التدفق الذي اقترضه نموذج سامي.

— هل يكفي؟

— مع البوابات الثلاث، نعم. من دون الثالثة، لا.

قال سليم:

— والبوابة الشرقية في وضع شبه مغلق. رأينا مؤشر المحور عند سبع درجات فقط، لا نصف مفتوحة كما في النموذج.

أعادوا تشغيل المحاكاة. ظهر أن فتح القناة من سبع درجات يرفع الصدمة الأولى على الحاجز. احتاجت ليان إلى تغيير ترتيب البوابات: الأولى إلى ثمانية عشر في المئة، الشرقية إلى عشرين، الثانية إلى اثنتي عشرة، ثم الثالثة على دفعات.

قال فارس:

— البوابة الأولى تعاند عند اثني عشر.

— لهذا نحتاج فخص صندوق تروسها، قالت ليان. وإذا لم تصل
إلى ثمانية عشر، لا نملك ضغطاً كافياً لدفع الانهيار الجزئي عند
مخرج القناة من دون ارتداد.
سأل مالك:

— أسوأ نتيجة؟

— ينكسر الحاجز الشرقي قبل أن يستقر الجريان، فتصل موجة إلى
طريق الساحل. أغلقناه، لكن هناك فرق إخلاء في السوق
القريب.

قال كريم:

— نستطيع نقلها خلال عشر دقائق.

أصدر مالك الأمر. ثم التفت إليه.

— قلت في البث إنك لست بريئاً من كل تقصير. سألتك سابقاً
لماذا صمت. لم تجب.

قال كريم:

— لأن الصمت حمى أشياء كنت أخاف خسارتها.

— أي أشياء؟

— رخصة عمل مؤقتة في مدينة أخرى. علاج ريم وهي صغيرة. وتعويض وقّعت عليه بشرط ألا أطلعن في تقرير اللجنة. أقنعت نفسي أنني لا أتنازل إلا عن اسمي، وأن سامي لن يعود إذا حاربتهم. رفع عينيه إلى مالك.

— ثم رأيتك تكبر في المنصب، ورأيت الناس يستخدمون قصتي دليلاً على أنك لا تجامل. كرهتك، وكان كرهني مريحاً. أعفاني من الاعتراف بأنني وقعت. قال فارس:

— كان يمكنك إرسال الصفحة مجهولة. — وكان مالك يستطيع قراءة تقرير أخيه. كل واحد منا يعرف الآن الجملة التي كان يمكن أن يقولها. لم يرد مالك. لم يعد يريد من كريم غفراناً، ولم يعد يرى الاعتراف صفقة تؤدي إلى المصالحة. كان الحق أبرد من ذلك وأشد: اسم أخذ يجب أن يعاد، سواء عاد صاحبه صديقاً أم ظل بعيداً. قالت ليان:

— المخرج الساحلي خالٍ. يمكننا بدء اختبار البوابات.

وقف مالك عند طرف الطاولة، لكنه لم يأخذ رأسها كما يفعل عادة.

— أنت صاحبة التسلسل، قال لها. اقرئي على الجميع. ومن يرى تعارضاً يتكلم الآن.

بدأت ليان تقرأ. اعترض سليم على زمن الفاصل بين البوابتين. صححه كريم بناء على نسبة التروس القديمة. أضاف فارس شرطاً لإغلاق الطريق حتى هبوط المنسوب. سجل مالك الملاحظات بقلمه، لا ليوقع في النهاية فقط، بل لأنه كان عضواً في قرار صار أكبر من صاحبه.

خارج المبنى، كان الحشد قد ابتعد عن بيت كريم. لم يكن ذلك غفراناً ولا حكماً، بل توقفاً عن ظلم عاجل. وفي ليلة لم تكتمل فيها الحقيقة بعد، كان التوقف عن الظلم أول صورة ممكنة للعدل.

الصوت الآخر في الخط

ظهر رقم فؤاد مرعي على هاتف فارس قبل منتصف الليل بثماني دقائق.

كان الاسم كافياً ليصمت من حول الطاولة. أخذ مالك الهاتف ووضعه على مكبر الصوت. جاءهم نفس متقطع وضجيج محطة قطار أو مطار.

— سمعت أنكم وجدتم التسجيل، قال فؤاد.

لم يسأله مالك كيف عرف. في الأزمات تتحرك الأسرار أسرع من سيارات الإخلاء.

— أين أنت؟

— خارج رواسي.

— هذا ليس جواباً.

— في الطريق إلى الحدود. لا تنظر إليّ هكذا، مع أنني لا أراك. غادرت قبل العاصفة بيومين في رحلة عمل.

قال كريم:

- الرحلات لا تمنع الشهادة.
- صمت فؤاد لحظة.
- كريم حداد. ما زلت تدخل الغرف التي لا يريدك أحد فيها.
- اقترّب كريم من الهاتف.
- وما زلت تغادرها قبل أن يصل الماء.
- قال مالك:
- البوابة الشرقية. لماذا حذفت آليتها من سجل المعدات؟
- لم أحذف بوابة. أعدنا تصنيف آلية مؤقتة ألغى اعتمادها.
- وأغلقت بلاغ فتحة الكابل.
- أغلقه قسم الصيانة.
- رفع فارس سجلاً أمام الشاشة.
- بتوجيه منك.
- تغير صوت فؤاد، لا خوفاً بل حذراً.
- كانت أيام الافتتاح. أي تأخير كان سيوقف التمويل. طلبت إصلاحاً بعد التسليم.
- ولم يحدث.

— حدثت أمور كثيرة لم تحدث. كنت أنت رئيس الفريق الميداني يا مالك. لا تحولني الآن إلى باب ترمي خلفه كل ما فعلتموه.

أصاب الكلام موضعه. شعر مالك بنظرات الموجودين، لكنه لم يدافع عن نفسه.

— سأكتب دوري. أريد دورك الآن. هل يمكن فتح الآلية الشرقية من الممر؟

جاء صمت طويل، ثم احتكاك ورق.

— إذا بقيت الوصلة القديمة، يمكن. لكن العجلة لا تتحرك تحت فرق ضغط عالٍ.

قالت ليان:

— نحتاج نبضة من الثالثة لتخفيف الضغط.

— من أخبرك؟

— الصفحة التي لم تعد في الملف.

تنفس فؤاد قرب الميكروفون.

— الصفحة لم تكن مخطط تشغيل معتمداً.

قال كريم:

- لكنها كانت صحيحة.
- كانت اقتراح سامي. جربه مرة واحدة من دون إذن، وكاد يحرق المحرك.
- نظر مالك إلى ليان. كتبت المعلومة فوراً.
- كم تستمر النبضة؟ سأل.
- لا أعرف.
- كنت مدير المشروع.
- ولهذا أعرف أن الذاكرة ليست سجلاً. لا تجعلوا اعترافي بما أتذكره أمر تشغيل.
- للمرة الأولى منذ بدأ الاتصال، قال فؤاد شيئاً يحميم بدل أن يحمي نفسه. طلب مالك منه أن يفتح حاسوبه ويرسل كل نسخة يحتفظ بها من ملفات الاختبار. قال فؤاد إنه لا يحملها. قال فارس إن النسخة الاحتياطية الشخصية ظهرت في فهرس المراسلات القديمة. صمت الرجل.
- دخولها سيكشف رسائل أخرى لا تخص الحادث.
- المدينة تحت الماء، قال مالك. اختر ما تريد أن تخجل منه غداً.

وصل الملف بعد ثلاث دقائق. احتوى على جدول اختبار واحد ورسالة من سامي عنوانها: «لا تعتمدوا البوابة قبل تكرار النبضة». في الرد كتب فؤاد: «نؤجل إلى ما بعد الافتتاح».

قال فؤاد:

- لا تقرأ جملة وتبني منها محكمة.
 - لن أفعل. سأبني منها قرار تشغيل، والمحكمة تقرأ الباقي.
 - مالك، إذا فشلتم سيقولون إنني أعطيتكم الإجراء.
 - وإذا نجحنا سيقولون إنك أنقذت المدينة؟
- لم يجب.

فهم مالك عندها أن فؤاد لا يخشى الحقيقة وحدها، يخشى القصة التي ستختار منها المدينة عنواناً. أغلق الاتصال بعد أن أخذ منه اسم الفني الذي حضر الاختبار. حفظ التسجيل كاملاً في ملف الأدلة، بما فيه الجمل التي تحمل مالك نفسه المسؤولية.

قال كريم:

- قبل خمسة عشر عاماً كنت ستقطع الخط عند أول اتهام.
- كنت سأكسره، قال مالك.

— لا تظن أن عدم كسره الليلة يحو ما فعلته.

— لا أظن.

عادوا إلى الجدول. على الشاشة، كان منسوب الخزان يواصل الصعود، غير معني بمن قال الحقيقة أولاً ولا بمن سيأخذ اسمها في الصباح.

الجزء الثالث

ليلة السد

لماذا دخل سامي

وصل الجزء الأخير من التسجيل قبل بدء الاختبار بدقيقتين. لم يكن صوتاً واضحاً. امتزجت حركة الماء باحتكاك الشريط، واضطر الفني إلى كتابة الكلمات التي استطاع تمييزها على الشاشة. وقف مالك وكريم وليان أمامها، بينما بقي الآخرون في مواقع التشغيل.

صوت سامي: «النقطة تسعة... الخادم تحول... القراءة متأخرة...»
ثم طرق على معدن.

صوت كريم من الهاتف: «اخرج. القياس لا يستحق...»
صوت سامي: «ليس القياس. البوابة الشرقية... طلب فؤاد إلغاء الآلية من السجل...»
فراغ.

ثم جاء صوت مالك من رسالة مسجلة كان سامي يعيد تشغيلها:
«إما أن نثبت التأخر بقياس مستقل قبل منتصف الليل، أو ينتهي النقاش.»

قال سامي لنفسه أو للسجل:

«سأثبت الاثنين.»

بعدها ارتفع إنذار قصير. سمعوا ركضاً، ثم صوتاً يشبه انغلاق باب ثقيل. قال سامي:

«الماء دخل من فتحة الكابل. ليست من كريم...»

وانتهى الشريط.

بقيت الكلمات الأخيرة على الشاشة: «ليست من كريم».

جلس فارس ببطء. قال:

— فتحة الكابل لم تكن ضمن نطاق فريق كريم. كانت مسؤولية
المقاول المدني.

قال سليم:

— وسجل الصيانة يذكر تسرباً فيها قبل الحادث بأسبوعين. الطلب
أغلقه فؤاد بوصفه غير عاجل.

سأل مالك:

— لماذا لم يظهر هذا؟

أجاب فارس:

— لأن تقرير الوفاة اعتمد الغرق بعد دخول غير مصرح به. لم يبحثوا لماذا امتلأ الممر بتلك السرعة.

قال كريم:

— بحثوا. ثم قرروا أن فتح ملف المقاتل بعد افتتاح السد سيوقف المشروع ويكشف توقعات أكبر من توقعي.

رفع مالك الصفحة السابعة عشرة، ووضعها إلى جوار تفريغ التسجيل. صارت أمامه القصة التي طلبها لسنوات في صورة رجل مذنب واحد، لكنها لم تعد تقبل ذلك الشكل.

دخل سامي لأنه كان مندفعاً ويثق بقدرته أكثر مما ينبغي. دخل لأن أخاه لم يمنحه وقتاً ولا سمعاً، بل وضع له موعداً يحول التثبيت إلى تحدٍّ. دخل لأن إدارة أخفت آلية، وأغلقت بلاغ تسرب، وسلمت نظاماً تعلم أنه قد يتأخر. ولم يوقفه كريم؛ حذره، ثم ترك الغضب يمنعه من الاتصال بمالك أو بإيقاف التشغيل رسمياً. وبعد موته صمت كريم حين كان صوته يستطيع مقاومة ظلم، وصمت صافية، وأغلق مالك بابه أمام شاهد قديم.

لم يكن بينهم قاتل يقف وحده تحت الضوء. كان بينهم عمل ناقص، وكلمات قاسية، وخوف، ومصالح، وكل واحد حمل قطعة ثم قال إن القطعة الأصغر لا تغير الصورة.

قال مالك:

— سنحفظ التسجيل كاملاً بثلاث نسخ. واحدة للتحقيق،
واحدة لعائلة سامي، وواحدة لمحمي كريم.

قال كريم:

— لا أريد أن تكون الكلمات الأخيرة حكم براءة لي.
— لن تكون. هي حقيقة واحدة، وستأتي بقية الحقائق معها.
— وهل ستذكر أنك وضعت الموعد؟

— نعم.

— وأني عرفت بتأخر الحساس قبل التسليم؟

— نعم.

نظر إليه كريم طويلاً، ثم قال:

— إذن قد نختلف على أشياء أخرى، لكننا لن نختلف على هذه.
انطلق إنذار من لوحة البوابات. أضواء البوابة الأولى باللون
البرتقالي.

قالت ليان:

— أمر الفتح إلى ثمانية عشر وصل، لكن الحركة توقفت عند اثني عشر فاصل أربعة.

قال سليم:

— الترس عالق.

أظهر المنسوب أن الوقت المتبقي عاد ينخفض: ثلاث وعشرون دقيقة.

سأل فارس:

— نعود إلى الخيارين القديمين؟ نفتح الثانية وحدها ونغرق الحي، أو نغلق الكل ونخاطر بجسم السد؟

نظر مالك إلى الخط الأزرق الذي رسمه سامي.

— لا. انتهينا للتو من قصة بنيناها لأننا أردنا مذنباً واحداً. لن نبني قراراً جديداً لأننا نريد خيارين فقط.

التفت إلى ليان.

— أعيدي الحساب من البداية. ثلاث بوابات، ومسار ثالث، وكل ما نعرفه الآن.

آخر مكالمة عادية

في ساحة المدرسة التي تحولت إلى مركز إيواء، جلس يوسف العابد على حافة سيارة الإنقاذ يبدل بطارية جهازه اللاسلكي. كان الماء قد دخل حذاءه منذ ساعتين، وكلما حرك أصابع قدمه سمع صوتاً صغيراً داخل الجلد.

ناوله أحد المتطوعين كوب شاي. شرب منه رشقة ثم نسيه فوق غطاء السيارة.

اتصلت زوجته سارة.

— ناصر يريد أن يكلمك.

جاء صوت ابنه، في التاسعة، متحمساً أكثر مما ينبغي:

— أبي، هل قدت القارب في الشارع؟

— قذته.

— وهل اصطدمت بسيارة؟

— السيارة اصطدمت بنا وهي واقفة.

ضحك الصبي. سمع يوسف ابنه الأصغر يقول إنه يريد الهاتف. أخذه منه وسأله إن كان سيعود قبل أن ينام.

نظر يوسف إلى المدرسة. عند البوابة كان المسعفون ينقلون رجلاً على لوح، وفي السطح المقابل لوح إحدى الأمهات بقطعة قماش بيضاء.

— لا تنتظري، قال. نعم، وسأوقظك حين أعود.

— تعديني؟

كان رجال الإنقاذ يتحاشون الوعود المحددة. يقولون «إن شاء الله» ويتركون للعبارة كل ما لا يملكونه. قال يوسف:

— أعدك أن أحاول ألا أتأخر أكثر مما يجب.

عادت سارة إلى الخط.

— أملك عندنا. الأخبار نتكلم عن احتمال فتح البوابات.

— نحن نُخرج المدرسة الآن. البيت في التل، ابقوا هناك.

— صوتك متعب.

— حذائي يشرب أكثر مني.

ضحكت رغم خوفها. كان هذا ما يريده. سألته عن الكوب الذي أخذه صباحاً، قال إنه نسيه في المحطة. قالت إن الأكواب تختفي

منه لأنه يوزعها على الناس ثم ينكر. للمرة الأولى منذ بداية الصفارات، تحدثا عن شيء لا ينقذ أحداً.

وصل نداء من الجهاز: حافلة عالقة قرب السوق، أربعة وخمسون شخصاً، والماء يرتفع عند العجلات.

قال يوسف:

— يجب أن أذهب.

— يوسف.

انتظر.

— لا تدخل مكاناً لا تستطيع الخروج منه.

نظر إلى المباني المنخفضة عند نهاية الشارع. كان يعرف أن العبارة صحيحة دائماً وغير ممكنة أحياناً.

— سأترك رجلاً عند الباب، قال.

— أنت الرجل الذي يتركونه عند الباب عادة.

ابتسم. لم تر ابتسامته.

— هذه المرة سأكون أذكى.

أنهى المكالمة ووضع الهاتف في الكيس المقاوم للماء داخل سترته.
ناداه آدم من قرب الحافلة؛ كان يساعد أمّا مسنة على الصعود،
ويحاول أن يخفي ألم ذراعه.

قال يوسف:

— بعد أن تنتهي، اذهب إلى أمك.

— أستطيع المساعدة.

— تستطيع. والسؤال ليس ما تستطيع، بل أين يجب أن تكون.

تردد آدم، ثم أشار إلى الطريق المقطوع.

— لا أعرف كيف أصل إليها.

أعطاه يوسف مصباحاً صغيراً.

— ابق مع فريق المدرسة حتى تأتي الحافلة الثانية. لا تتحرك

وحدك. وإذا اتصل بك أبوك، ابدأ بالمكان. لا تبدأ بالعذر.

حذق آدم فيه.

— كيف عرفت؟

— لأن كل من هم في عمرك يظنون أن الكبار يحتاجون مقدمة طويلة، وكل الكبار الخائفين يطلبون جواباً قصيراً.

جاء النداء مرة أخرى. صعد يوسف إلى السيارة. قبل أن يغلق الباب، التقط كوب الشاي البارد وشربه كاملاً. لم يكن طيباً، لكنه كان آخر شيء عادي في ليلته، ولذلك لم يتركه.

ثلاث بوابات

كان للسد ثلاث بوابات تصريف رئيسة، صُممت في زمن لم يكن في مجرى السرو بيت واحد.

الأولى تصب في القناة الوسطى، وهي الطريق الأقصر إلى البحر. الثانية تضيف إليها مجرى غربياً يمر بمحاذاة السوق. أما الثالثة فتفتح إلى حوض تهدئة فوق الحي المنخفض مباشرة، ثم تلتقي بالمجرى بعد الجسر القديم.

في المخطط تبدو الخطوط نظيفة. على الأرض، بنى الناس فوق جوانبها، وضائق القنوات بالأسوار والمخازن والطرق. بقيت البوابات في مواضعها، لكن المدينة هي التي تحركت نحوها.

قالت ليان:

— البوابة الأولى متوقفة عند اثني عشر فاصل أربعة في المئة. تيار المحرك ارتفع إلى حد الفصل. إذا أعدنا الأمر قد نخرقه.

قال سليم:

— العطل في صندوق النقل أو محور الرفع. لا نصل إليه إلا من منصة الصيانة العليا.

كانت المنصة مكشوفة للمطر، فوق جدار السد مباشرة. أرسل سليم فريقاً إليها من غير أن يغادر غرفة القرار؛ فقد احتاجوه في خطة الممر الشرقي. ظهر رجلان على الكاميرا يثبتان حبال الأمان، ثم فتحا غطاء الصندوق.

جاء صوت أحدهما:

— مسمار القص انحنى. الترس يتحمل، لكن الوصلة لا تنقل الحمل كاملاً.

— هل تستبدله؟

— نحتاج إيقاف الضغط عن البوابة، وهذا غير ممكن وهي مفتوحة.

قال فارس:

— إذن البوابة الأولى انتهت.

أجاب سليم:

— انتهى تحريكها، لا تدفقها. الاثنا عشر في المئة تمنحنا أربعمئة متر مكعب في الثانية.

— نحتاج أكثر من ضعف ذلك.

عرضت ليان نتائج التجربة على الشاشة. فتح البوابة الثانية إلى ثلاثين في المئة سيوقف ارتفاع الخزان، لكنه يرسل موجة بارتفاع متر ونصف إلى السوق والحي المنخفض خلال تسع عشرة دقيقة. فتح الثالثة وحدها يخفف الضغط عن جسم السد، لكنه يغمر مركز الإيواء في المدرسة.

قال ممثل البلدية عبر الاتصال المرئي:

— المدرسة أخليت جزئياً. كم بقي؟

قال قائد الطوارئ:

— أربعمئة وثلاثة عشر شخصاً، بينهم خمسون لا يستطيعون المشي من دون مساعدة.

— يمكن نقلهم خلال عشرين دقيقة.

— الموجة تصل في تسع عشرة.

قال مالك:

— لا نفتح الثالثة الآن.

رد رئيس البلدية:

— وإذا انهار السد؟

— لم أقل نبقيا مغلقة. قلت ليس الآن.

اقتربت قراءة الخزان من الخط الأحمر التالي. خفف فتح البوابة الأولى معدل الارتفاع، لكنه لم يوقفه. كانت الأمطار في الجبال ترسل نبضات جديدة؛ كلما اعتقدوا أن التدفق استقر ارتفع منحناه مرة أخرى.

قال كريم:

— البوابة الشرقية القديمة تستطيع حمل الفرق إذا وصلنا بها إلى عشرين درجة.

— لا نعرف إن كانت العجلة تعمل، قال فارس.

— نعرف أنها تحركت في آخر اختبار مسجل.

— قبل خمسة عشر عامًا.

أشارت ليان إلى ثلاثة منحنيات.

— لدينا الآن أربعة عناصر، لا ثلاثة: البوابات الرئيسة، وقناة التحويل. السؤال ليس أيها نفتح، بل بأي ترتيب حتى لا تصنع الموجات بعضها فوق بعض.

جاء صوت فريق المنصة:

— المسمار بدأ يتشقق. نوصي بعدم لمس البوابة الأولى.

سأل مالك:

— إذا انكسر وحده؟

— قد تهبط البوابة وتغلق، أو تنحرف في مجراها وتبقى مفتوحة. لا نستطيع التنبؤ.

أمر بإخلاء منصة الصيانة. ثم قال لليان:

— ثبتي الأولى عند وضعها الحالي في كل النماذج. لا تعتبرها قابلة للتحكم.

قال رئيس البلدية:

— أنت تتخلى عن أكبر بوابة لدينا.

— أنا أتخلى عن وهم أننا نتحكم بها.

كانت تلك الدقائق أول مرة يرى فيها فارس مالك يفرق أمام الجميع بين القرار والقدرة. لم يقل «سأفتحها» لأن منصبه يمنحه الأمر. قال إنها خرجت من أيديهم، ثم بنى ما بقي على الحقيقة الأقل راحة.

وضعت ليان يدها على لوحة الأرقام.

— أحتاج أن أختبر كل ترتيب ممكن، لا الترتيبات المعتمدة فقط.

— كم؟

— خمس عشرة دقيقة.

نظر الجميع إلى الساعة. كان تقدير التجاوز واحداً وعشرين.

قال فارس:

— وتريدون أن ننفق خمسة عشر منها على حساب؟

أجابت:

— أريد أن نمنع خياراً سريعاً من قتل الناس الذين نزعم أننا
ننقدهم.

الاختيار الكاذب

وضع رئيس البلدية الخيارين على الشاشة كأنهما سؤال امتحان:

«فتح البوابتين الثانية والثالثة فوراً لحماية السد، مع خسائر متوقعة في
الحي المنخفض. أو إبقاؤهما مغلقتين، مع احتمال انهيار جسم
السد وخسائر على مستوى المدينة».

قال:

— لا يوجد قرار بلا ثمن. اختر الأقل.

كان التعب قد جعل الوجوه حادة، والأصوات أقصر. نظر مالك إلى الخريطتين: في الأولى بقعة حمراء تغطي الحي المنخفض؛ في الثانية يمتد الأحمر إلى نصف رواسي. بدا الجواب واضحاً إلى حد يخيفه.

قبل سنوات، كان سيختار الخسارة الأصغر في الشاشة ويطلب من الجميع تحمل مسؤوليته. كانت تلك طريقته في فهم القيادة: أن يكون قادراً على نطق الجملة التي يخاف الآخرون منها. قالت ليان:

— هذا ليس الخيار كله.

رد رئيس البلدية:

- المهندسة طلبت خمس عشرة دقيقة بينما بقي أقل من عشرين.
- بقي واحد وعشرون وفق القراءة المصححة، قالت. وقناة التحويل ليست في أي من الخريطتين المعروضتين.
- قناة غير معتمدة، لا نعرف حالتها.

قال كريم:

- تحقق الفريق من وجودها ومن جريان الهواء إلى المخرج.
- وأنت لست موظفاً في الهيئة.

قال مالك:

— لكنه يعرف القناة أكثر منا.

سكت رئيس البلدية لحظة، ثم قال:

— هل ترفض أمر الإخلاء المائي؟

— أرفض صياغة القرار على أنه بابان فقط. نستمر في إخلاء الحي والمدرسة، ونجهز البوابتين، لكن لا نفتح قبل أن تنهي ليان الحساب أو يصل المنسوب إلى حد الإجراء القسري.

— وكم الحد؟

حددت ليان رقماً أقل من حافة التجاوز بأربعين سنتيمتراً. قال فارس إنهم إذا بلغوه فلن يبقى وقت لتدرج ناعم، وستفتح الثانية إلى الحد الأدنى مهما كانت نتيجة النموذج.

ثبت مالك ذلك في سجل القرار.

قال رئيس البلدية:

— إذا فشل هذا ستُسأل لماذا لم تختار إنقاذ العدد الأكبر.

أجاب مالك:

— وإذا فتحت الآن سأُسأل لماذا عرضت على الناس خياراً ناقصاً وأنا أعرف أن هناك احتمالاً ثالثاً. سنُسأل في الحالتين. السؤال لا يختار بدلنا.

قطع الاتصال.

في مركز الإيواء، صدر أمر نقل المدرسة. حمل المتطوعون المرضى على كراسٍ ويطانيات. عثر آدم على يوسف العابد عند البوابة ينظم صعود الناس إلى حافلتين.

قال له:

— ظننت أنك عدت إلى السوق.

— سأعود بعد أن تتحرك الحافلة الأخيرة.

— لماذا؟

— بقي أصحاب المحلات عند الأسطح. يقولون إنهم لن يتركوا رزقهم للماء.

قال آدم:

— الناس لا يفهمون الخطر حتى يصل إليهم.

نظر يوسف إليه.

— أحياناً يفهمونه، لكنهم يظنون أن الخسارة التي يختارونها أقل من الخسارة التي يفرضها عليهم غيرهم.

ساعد آدم سلمى إلى الحافلة. أمسكت سلمى بيده وقالت:

— حقيبة زوجي معك؟

أراها إياها تحت المقعد.

— ومعك حقيبتك أنت؟

لم يكن يقصد حقيبة. نظر آدم إلى جيبه حيث البطاقة.

— نعم.

— إذن لا تقل إن الماء أخذها منك.

تحركت الحافلة. بقي آدم عند الباب لأنه أراد مساعدة يوسف، ولأنه لم يرد أن يعود إلى أمه بعد مكالمتهما الناقصة.

في السد، كانت ليان تبني الاحتمال الثالث من قراءات غير كاملة، ومخطط رجل ميت، وقناة نُسيت لأن أحداً لم ير فائدة في تسجيل ما لا يريد استخدامه. لم يكن احتمالاً نظيفاً. كان مجرد فرصة ألا تكون الخسارة التي ظهرت أولاً هي الخسارة الوحيدة.

خمس عشرة دقيقة

ضبط فارس المؤقت على خمس عشرة دقيقة.

قال لليان:

— حين يصل إلى الصفر، نفتح الثانية إلى خمسة وعشرين مهما كانت النتيجة، إلا إذا أمر مالك بغير ذلك كتابة.

قال مالك:

— لا تنتظر كتابتي. هذا حد أمان اتفقنا عليه. نفذه.

بدأت الأرقام تنقص.

قسمت ليان الشاشة إلى أربع طبقات: منسوب الخزان الحقيقي بعد تصحيح تأخر الست دقائق، تدفق البوابة الأولى العالقة، سعة القناة الشرقية وفق المسح، وزمن وصول كل موجة إلى نقاط المدينة. طلبت من كريم تقدير احتكاك القناة القديمة، ومن سليم مقاومة العجلة بعد سنوات الصدأ، ومن فارس تحديث عدد من بقي في كل منطقة.

لم يقل مالك لأحد أسرع. كانوا يعرفون.

عند الدقيقة الثانية، انقطع حساس الضغط الشرقي. استخدمت ليان القراءة اليدوية من برج السد.

عند الرابعة، أبلغ قائد الإخلاء أن إحدى الحافلات تعطلت عند السوق، وأن نقل ركابها يحتاج ست دقائق.

عند السادسة، وصل المطر إلى أقصى شدته في المحطة الجبلية، وارتفع التدفق الداخل تسعة في المئة.

قال فارس:

— الحد القسري صار قبل المؤقت بدقيقتين.

— غيره، قال مالك.

— سيترك لها ثلاث عشرة دقيقة فقط.

— إذن لديها ثلاث عشرة.

لم يعترض على الفيزياء باسم وعد قطعه لها. ولم يسحب منها العمل لأن الزمن نقص. عدل الحد، وتركها تقرر كيف تستخدم ما بقي.

في الدقيقة الثامنة قال كريم:

— معامل الاحتكاك في نموذج سامي منخفض أكثر من اللازم. القناة لم تكن ملساء حتى وهي جديدة.

أجابته ليان:

— أضفت انهيار المخرج.

— الانهيار يقلل المقطع، لكنه لا يحسب الترسب داخل الانحناء.

— كم تزيده؟

— خمسة عشر في المئة على الأقل.

غيرت الرقم. هبط التدفق المتوقع تحت المستوى المطلوب.

قال فارس:

— انتهى المسار الثالث.

قالت ليان:

— لا. انتهت نسخة منه.

رجعت إلى الصفحة السابعة عشرة. كانت هناك قيمة لم تستخدمها: نبضة فتح قصيرة للبوابة الثالثة قبل فتح القناة الشرقية. ظنت أولاً أنها خطأ في الرسم، لأن فتح الثالثة يزيد الماء نحو الحي. لكن النبضة لا تستمر إلا تسعين ثانية.

قالت:

— سامي لم يستخدم الثالثة للتصريف. استخدمها لخفض الضغط خلف حاجز القناة قبل تحريك العجلة.

قال سليم:

— مثل كسر فراغ في أنبوب.

— بالضبط. نفتح الثالثة سبعة في المئة لتسعين ثانية، نغلقها إلى اثنين، ثم نفتح الشرقية. بعد استقرارها نرفع الثانية تدريجياً.
قال فارس:

— التسعون ثانية ترسل موجة إلى المدرسة.

جاء صوت قائد الإخلاء:

— المدرسة خالية. الحافلة المعطلة ما زالت عند السوق، لكنها فوق منسوب الموجة المتوقعة بثلاثين سنتيمتراً.
قال كريم:

— إذا كان التقدير صحيحاً.

نظر مالك إلى المؤقت. بقيت ثلاث دقائق واثنى عشرة ثانية.
قال:

— ماذا ينقصك يا ليان؟

— أحتاج قراءة حقيقية لضغط الحجرة الشرقية عند فتح الثالثة.
الحساس ميت.

قال سليم:

— لدينا مقياس يدوي عند النقطة تسعة.

— لا أحد هناك.

— سنكون هناك إذا دخل الفريق.

قال فارس:

— لا وقت.

قالت ليان:

— من دون القراءة سأطلب فتح الثانية عند الصفر. هذا ما تسمح به البيانات.

وصل المؤقت إلى دقيقتين.

رفع مالك الهاتف السلكي.

— سليم، جهز فريق الممر.

قال سليم:

— جاهز منذ خرجنا.

— هل تكفي دقيقتان للوصول إلى النقطة تسعة؟

— لا. نحتاج سبعة.

قال فارس:

— انتهى الوقت.

أجاب مالك:

— الوقت الذي ينتهي هو وقت الاختيار من الغرفة. عند الصفر
افتح الثالثة نبضة الاختبار كما قالت ليان. إذا تطابقت قراءة
الخزان مع النموذج في أول ثلاثين ثانية، نمنح الفريق خمس دقائق
أخرى. إذا لم تتطابق، نفتح الثانية.

سأل ليان:

— هل تكفي ثلاثون ثانية لتعرفي؟

— لتعرف أن النموذج خاطئ، نعم. لا تكفي لتثبت أنه صحيح.

— هذا كل ما نحتاجه للخطوة الأولى.

وصل المؤقت إلى الصفر.

وضع فارس يده فوق أمر الفتح. قال:

— البوابة الثالثة، سبعة في المئة، تسعون ثانية.

ضغط.

الفصل التاسع عشر

قراءة ليان

في الثواني العشر الأولى لم يحدث شيء.

ثم تحرك مؤشر البوابة الثالثة ببطء: واحد في المئة، اثنان، ثلاثة. على خريطة المدينة ظهر مسار أصفر رفيع يتجه إلى حوض التهذئة. انطلقت الصفارات في السوق الذي ظن الناس أن أسوأ الماء مرّ به.

قالت ليان:

— راقبوا ضغط الخزان، لا قراءة البوابة.

هبط المنحنى مقداراً صغيراً، ثم ارتفع نصفه من جديد. أدخلت القيمة في النموذج. عند الثانية الخامسة والعشرين ظهر انكسار خفيف في خط التسارع.

قال فارس:

— هل هذا هو؟

— انتظر.

الثانية الثلاثون.

كان الفرق بين التوقع والقراءة أقل من اثنين في المئة.
قالت:

— النموذج لم يفشل.

— لكنه لم ينجح.

— أعطوا الفريق خمس دقائق.

أبقى فارس البوابة حتى سبعة في المئة. في السوق وصلت موجة منخفضة، دفعت المياه إلى درجات الحافلة المعطلة ثم استقرت تحتها. أبلغ يوسف العابد أن الركاب انتقلوا إلى السطح، وأن فريقه سيبقى حتى وصول البديلة.

عند الثانية التسعين أغلق فارس البوابة إلى اثنين في المئة. قالت ليان:

— الضغط الخلفي انخفض كما توقع سامي. لدينا نافذة إحدى عشرة دقيقة لتحريك الشرقية قبل أن يمتلئ الحوض.

قال كريم:

— ليست إحدى عشرة. تأخر القراءة يعني أننا بدأنا النافذة قبل ست دقائق.

هزت رأسها.

— صححت الخزان، لا الحجرة الشرقية.

فتحت طبقة التوقيت، وأعادت مزامنة المصادر يدوياً. ظهرت الحقيقة أقصى: خمس دقائق وأربعون ثانية.
قال فارس:

— الفريق لا يصل في الوقت.

قال سليم وهو يثبت الحبل حول خصره:
— وصلنا إلى النقطة الثامنة في ست دقائق أول مرة. الآن نعرف الطريق.

قالت ليان:

— لا أحتاج فتح البوابة في خمس دقائق. أحتاج قراءة الضغط من النقطة تسعة. إذا وصلت قبل إغلاق النافذة أستطيع حساب لحظة الفتح التالية.

أظهرت سلسلة الحساب أن المسار الثالث ممكن، لكن بشروط ضيقة: يجب أن تبقى الأولى العالقة مفتوحة كما هي، وتفتح الشرقية يدوياً إلى ما لا يقل عن سبع عشرة درجة، ثم ترفع الثانية على ثلاث دفعات. الثالثة لن تستخدم للتصريف المستمر، بل لنبضات توازن قصيرة. إذا تأخر أي عنصر أكثر من أربعين ثانية، تتقابل موجتان عند الجسر القديم.

قال مالك:

— نسبة النجاح؟

— لا أملك عدداً صادقاً. النموذج يستخدم قناة لم تُفحص منذ خمسة عشر عاماً.

— ماذا تملكين؟

— أعلم أن البديل المؤكد يغمر الحي. وأعلم أن هذا التسلسل يحترم حدود الضغط في كل قراءة لدينا. لا أستطيع أن أعدك بأكثر.

كان مالك يطلب عادة رقماً لأنه يمنحه شيئاً يمكن الدفاع عنه لاحقاً. هذه المرة قال:

— هذا يكفي لتوصية، لا لوعد.

نظر إلى فريق الممر.

— نبني القرار على توصيتك. اقرئي التسلسل مرة أخرى، ببطء.

قرأته ليان. صحح كريم عدد لفات العجلة. ثبت فارس نقاط العودة. حدد سليم من يحمل جهاز الضغط ومن يعمل على السلسلة. لم تعد قراءة ليان رقماً على شاشة؛ صارت الخيط الذي سيربط غرفة القرار ببرجال داخل الجبل وحافلة عالقة في السوق ومدينة لا تعرف أن نجاتها قد تعتمد على أربعين ثانية.

المحاولة الأولى

لم ينتظروا وصول فريق الممر إلى العجلة كي يختبروا النبضة.

بنت ليان محاكاة سريعة من قراءات الضغط الثلاث. لم تكن شاشة جميلة؛ ثلاثة أعمدة تتحرك فوق بعضها، وخط أحمر يمثل الحد الذي قد يفصل المحرك. وقف فارس إلى جوارها وسأل مرتين عن مصدر كل رقم. في المرة الثالثة قالت:

— إذا أردت يقيناً كاملاً، لن نفتح شيئاً الليلة.

— أريد أن أعرف أين ينتهي القياس ويبدأ افتراضك.

أشارت إلى العمود الأوسط.

— هنا. كل ما بعده تقدير مبني على اختبار سامي، لا على حالة اليوم.

أخذ فارس نفساً قصيراً، ثم قال إلى الميكروفون:

— نبضة تجريبية، ثلاثون ثانية فقط. البوابة الثالثة إلى اثنين في المئة، ثم إغلاق.

وصل الأمر إلى غرفة التشغيل الثانوية. بدأت العجلة الكهربائية تدور. على الشاشة تحرك الضغط كما توقعت ليان في الثواني الأولى، ثم قفز العمود الأيسر فجأة.

قالت:

— أوقفوا.

لم تتغير الإشارة.

— أوقفوا الآن!

جاء صوت المشغل:

— أمر الإغلاق لا يستجيب.

انخفضت الأصوات في الغرفة دفعة واحدة. أمسك فارس المفتاح اليدوي، لكن مالك سبقه إلى زر القطع العام. انطفأ صف كامل من الشاشات. بقيت البوابة مفتوحة عند ثلاثة فاصلة واحد في المئة، أكثر من الحد الذي اتفقوا عليه، والماء يندفع نحو قناة تصب في طرف الحي المنخفض.

ظهر على خريطة المدينة خط أزرق جديد.

قال قائد الإخلاء:

— كم يصل؟

حسبت ليان بسرعة.

— موجة بين عشرين وثلاثين سنتيمتراً خلال إحدى عشرة دقيقة، إذا أغلقت البوابة الآن.

— وإذا لم تغلق؟

لم تجب. كان سليم وهادي في الطريق إلى الآلية اليدوية، لكن الممر يحتاج تسع دقائق في أفضل حال.

قال مالك:

— حولوا كل فرق الحي إلى الشارع الشرقي. أخرجوا الحافلة العالقة قبل الموجة.

جاء صوت يوسف من الجهاز:

— الحافلة لا تتحرك. ننقل الركاب إلى المدرسة.

— لديك إحدى عشرة دقيقة.

— لدي أربعة وخمسون شخصاً، اثنا عشر منهم لا يستطيعون صعود الدرج وحدهم.

سمع مالك خلف صوته أبواباً تضرب وماءً يتدفق.

— أرسل لك فريقين.

— أرسل حبلاً وحملات. الفريقان سيعلقان معنا إن جاءا بلا معدات.

أعاد مالك الأمر بتفاصيل يوسف نفسها. لم يضيف شيئاً.
قالت ليان:

— الخطأ مني. نموذج المحرك لم يحسب الارتداد بعد انقطاع الكهرباء.

— الخطأ في القرار، قال فارس. كلنا رأينا الهامش.

نظر مالك إلى الخط الأزرق وهو يمتد. كان يستطيع أن يقول إنه وافق بناء على قراءتها، وأن الوقت لم يسمح. الجمل جاهزة، صحيحة جزئياً، وقادرة على توزيع الذنب حتى لا يستقر في يد أحد.
قال:

— أنا أمرت بالاختبار قبل وصول الفريق. سجلها كذلك.

رفعت ليان عينها، ثم كتبت.

في الممر الشرقي، وصل سليم إلى صندوق الفصل اليدوي. فتح الغطاء فاندفع منه ماء أسود ورائحة عزل محترق. قال إن الذراع عالقة. أعطاه فارس ترتيباً لتخفيف الحمل. حاول مرة، ثم ثانية.

عند الدقيقة السابعة تحركت الذراع نصف مسافة.

في الحي، كان يوسف ورجاله يربطون الحبل بين الحافلة وسلم المدرسة. خرج الناس واحداً واحداً، أيديهم فوق الحبل والماء عند الركبتين. رفض رجل مسن أن يترك حقييته. أخذها آدم منه وحملها بأسنانه وهو يساعده بالصعود.

عند الدقيقة العاشرة، أغلق سليم البوابة.

وصلت الموجة أصغر مما حسبت ليان، لكنها وصلت. دفعت مؤخرة الحافلة حتى اصطدمت بعمود إنارة، وكسرت باب متجر، وأسقطت متطوعاً قبل أن يمسكه يوسف من سترته. لم يمت أحد. أصيب اثنان.

بعد أن استقرت القراءات، لم يحتفل أحد.

قال فارس:

— عرفنا الآن أن القطع العام لا يغلق الثالثة.

قالت ليان:

— وعرفنا مقدار الارتداد الحقيقي. أستطيع إعادة الحساب.

سأل كريم من جهاز فريق الممر:

— هل ستجربون مرة أخرى؟

نظر مالك إلى الوقت المتبقي قبل حافة التصريف. لم تعد لديهم رفاهية الإجابة التي تريخ أحدا.

— نعم، قال. لكن ليس بالطريقة نفسها.

كانت المحاولة الأولى قد فشلت. لهذا بالضبط صارت الثانية قراراً يعرفون ثمنه، لا فكرة تبدو صحيحة على شاشة.

فريق الممر

كتب سليم أسماء الداخلين على اللوح:

سليم نادر — قائد الممر.

هادي منصور — كهرباء ومحاور.

نبيل رافع — سلامة وغاز.

مالك نصار — اتصال القرار وقراءة الضغط.

اعترض فارس على الاسم الأخير.

— يستطيع عامل رابع حمل المقياس.

قال سليم:

— يستطيع. لكن إذا تغير الضغط نحتاج قراراً في المكان، ومالك

يفهم أثره على البوابات.

قال كريم:

— وأنا أفهمه.

— ركبتيك لا تتحمل السلم السفلي، قال سليم. نحتاجك عند المخطط.

لم يجادل كريم. جلس أمام خط الاتصال وارتدى السماعة.
قال مالك:

— لا يتحول وجودي إلى سبب لتجاوز شروط الخروج. إذا أمر سليم بالعودة، أعود. إذا قطعت ليان التسلسل، نتوقف. إذا عجزت عن حمل المقياس، يأخذه غيري.
قال نبيل:

— وإذا انقطع الاتصال؟

— تسعون ثانية ثم عودة، كما اتفقنا.

قال هادي:

— وإذا بدأ الفتح وبقينا خلف البوابة؟

شرح سليم نقطة الملجأ الإسمنتية فوق منسوب القناة، وقال إن الفريق لن يدير العجلة قبل وصول الجميع إليها باستثناء عاملين مربوطين بخط مستقل. وضع لكل واحد دوراً بديلاً إن أصيب الآخر.

أخرج مالك هاتفه واتصل بمهما. أجابت من أول رنة.

— آدم بخير، قالت قبل أن يسأل. رأيته في بث الشارع أمام بيت كريم. أنا ذاهبة إليه.

— أنا داخل الممر الشرقي.

سكتت لحظة.

— هل هذا ضروري؟

— وجود فريق ضروري. وجودي فيه قرار يمكن مناقشته.

— وهل ناقشته؟

نظر إلى سليم وليان وفارس.

— نعم. واعترضوا.

— ولم دخلت؟

— لأن القراءة اليدوية قد تحتاج قرار فتح فورياً، ولأنني أعرف حدود البوابات. وسليم يقود هناك، لا أنا.

تنفست مها ببطء.

— إذن ارجع معهم، لا قبلهم ولا بعدهم.

— سأفعل.

كان يريد أن يقول لآدم شيئاً، لكنه لم يعرف بعد أن ابنه يحمل
سراً أثقل من بطاقة. قال:

— إذا رأيته، قل لي له إنني عرفت أن كريم أنقذه. وقل لي له إننا
سنتكلم.

— بأي صوت؟

لم يفهم السؤال أولاً.

قالت:

— الصبي يسمع الجملة قبل معناها. بأي صوت أقولها؟

نظر مالك إلى الباب ش-3.

— قل لي له: حين أرجع، أريد أن أسمع ما حدث.

— فقط؟

— فقط.

أنهى المكالمة. سلم هاتفه إلى فارس؛ لا تعمل الشبكة داخل الجبل
على أي حال.

قال سليم:

— فحص المعدات.

راجعوا الأقنعة والحبال والمصاييح وجهاز الغاز والمقياس السلبي.
قرأت ليان نقاط التسلسل للمرة الأخيرة. ثم طلب مالك منها أمراً
لم تتوقعه:

— إذا طلبت منك فتحاً يخالف قراءتك، ارفضى وسجلي الرفض.

— حتى لو كان الوقت ينفد؟

— خصوصاً إذا كان الوقت ينفد.

قال كريم عبر السماعه:

— انلخط واضح حتى الباب. بعد المنعطف سنعرف إن كان الكابل
القديم سليماً.

فتح سليم الباب.

دخل الأربعة بالترتيب الذي كتبه، لا بالرتبة التي يحملها كل
واحد. ظل فارس واقفاً حتى اختفى آخر ضوء، ثم أغلق الباب
إلى حد يسمح للكابل بالمرور.

قالت ليان:

— بدأ التوقيت.

لم يعد في غرفة القرار رجل واحد يمكن أن ينقذ المدينة أو يهلكها
وحده. كان هناك فريق في الممر، وفريق على الشاشات، وفرق في

الشوارع. وبينهم خطة تسمح لكل واحد أن يقول «توقف» قبل أن تصبح الطاعة أسرع من النجاة.

داخل الجبل

بعد المنعطف الثاني اختفى صوت المطر تماماً.

بقي صوت الماء داخل الجدران، عميقاً ومتصلاً، كأنه ليس حولهم بل تحت عظامهم. كان الكابل يمتد خلف نبيل، يلمس الأرض ثم يرتفع عند كل خطاف. كل ثلاثين متراً كان يثبت علامة مضيئة لتدلهم على طريق العودة إذا انطفأت المصابيح.

قال كريم في السماعة:

— عند التفرع خذوا اليسار. اليمين يصل إلى فتحة الكابل القديمة. توقف مالك أمام الممر الأيمن. خلف شبكة حديدية رأى سواداً لا نهاية له. هناك، قبل خمسة عشر عاماً، اندفع الماء على سامي.

قال سليم:

— اليسار يا مالك.

تحرك.

عند النقطة السابعة ارتفع الغاز قليلاً، لكن بقي تحت حد الخروج. وعند الثامنة وجدوا الصندوق مفتوحاً كما تركوه. تجاوزوه إلى سلم يهبط ست درجات في ماء بلغ منتصف الساق. قال نبيل:

— الجريان أقوى من المرة الأولى.
أجاب كريم:

— لأن نبضة الثالثة وصلت إلى حجرة التوازن. أمامكم تسعون ثانية قبل أن يستقر.

ثبتوا أنفسهم بالحبل وانتظروا. مر الماء عكراً، يحمل قطع صداً صغيرة. بعد دقيقة انخفض إلى ما فوق الكاحل.

وصلوا إلى النقطة التاسعة. كان المقياس اليدوي مثبتاً في أنبوب نحاسي، وزجاجة معتماً من الداخل. مسحه مالك فلم ير التدرج. قال هادي:

— نركب مقياسنا المحمول على صمام الاختبار.
حاول فتح الصمام، فلم يتحرك. وضع مفتاح الربط عليه، وقال سليم:

— ربع دورة فقط. الأنبوب قديم.

تحرك الصمام بصوت حاد. اندفع ماء رفيع، ثم استقر المؤثر.
قرأ مالك الرقم.

أعادته ليان عليه للتأكد، ثم أدخلته في النموذج.
— الضغط أقل من توقعنا بثمانية في المئة، قالت.
قال فارس:

— سيئ أم جيد؟

— يعني أن المخرج يسحب ماء أكثر مما حسبنا. جيد للسعة، لكنه
قد يعني أن الانهيار يتحرك.

جاء بلاغ من فريق الساحل: خرجت كتل طين من فتحة القناة،
ثم بدأ جريان صاف نسبياً. لم يكن هناك انهيار جديد.
قالت ليان:

— ثبتوا القراءة. انتقلوا إلى غرفة العجلة.

وجدوا بابها بعد حاجز منخفض. كان صدؤه قد جمعه بالإطار.
ضربه هادي بمطرقة مطاطية حول الأطراف، ثم دفع الأربعة معاً.
فتح فجأة، وسقطوا خطوة إلى الداخل.

ظهرت العجلة في ضوء المصاييح، أكبر مما بدت في الرسم، مثبتة عمودياً إلى جدار تغطيه أملاح بيضاء. امتدت منها سلسلة غليظة إلى صندوق تروس في السقف.

قال كريم:

— يفترض أن يكون مؤشر الزاوية على يمين المحور.
وجده نبيل. أضاء الرقم سبعة تحت طبقة الغبار.

قال سليم:

— نبدأ ثلاث لفات عكسية كما قال مراد، ثم نفحص.
وضعوا المقبضين في العجلة. أمسك سليم وهادي، بينما راقب نبيل السلسلة وقرأ مالك الضغط.

اللفة الأولى تحركت سنتيمترات بصوت احتكاك طويل.
الثانية كانت أسهل.

في الثالثة صدر من السقف طرق متباعد.
مرة.

ثم مرة أخرى.

قال سليم:

— توقف.

تجمدت الأيدي.

قال كريم عبر السماعه:

— هذا صوت قفز السلسلة.

نظروا إلى الأعلى. بين ضوئين، ظهر أحد روابطها خارج مسار
الترس بنصف عرضه.

الفصل الثاني والعشرون

العجلة العالقة

لم تكن السلسلة قد خرجت تماماً، لكن اللفة التالية كانت كافية لتفعل.

قال هادي:

— أستطيع إعادتها إذا خففنا الحمل عن المحور.

سأل سليم:

— كيف؟

— نحرر قابض الطوارئ ربع دورة، نرفع السلسلة بالرافعة اليدوية، ثم نعيدها إلى السن.

قال كريم:

— القابض خلف صندوق التروس. الوصول إليه من المنصة الضيقة.

رفع نبيل الضوء. كانت المنصة شريطاً معدنياً فوق العجلة، لا يتسع إلا لرجل واحد. تحتها يدور عمود النقل، وخلفه الماء يضغط على بوابة لم تتحرك منذ سنوات.

قال سليم:

— هادي يصعد. نبيل يؤمنه. أنا على الرافعة. مالك لا يلمس شيئاً ويقراً الضغط.

لم يعترض مالك على الجملة الأخيرة.

صعد هادي، وربط حبل صدره. أدخل المفتاح في القابض وحاول. لم يتحرك. رش عليه مادة فك الصدأ، وانتظر عشر ثوانٍ بدت أطول من المؤقت كله.

قالت ليان:

— بقيت ثلاث دقائق قبل أن نضطر إلى فتح الثانية وحدها.

قال سليم:

— سمعنا.

تحرك القابض فجأة. انخفضت السلسلة نصف شبر، فشد سليم الرافعة. عاد الرابط نحو الترس، لكن مسماراً صدأً انكسر وانطلقت ذراع الرافعة إلى الخلف. ضربت كتف سليم وأسقطته على الحاجز.

صرخ نبيل:

— إصابة!

بقيت يد سليم معلقة في الحزام، ومال جسده فوق الماء. أمسكه مالك من سترته، وسحبه نبيل إلى الأرض. كان كتفه بزاوية غير طبيعية، والدم يسيل من جرح فوق حاجبه.

قالت ليان:

— أوقفوا المهمة وخرجوا.

فتح سليم عينيه.

— انتظروا. الغاز؟

قرأ نبيل الجهاز.

— آمن.

— السلسلة؟

قال هادي من المنصة:

— عادت إلى السن. أحتاج تثبيت القابض فقط.

قال سليم:

— نبيل، أنت قائد الممر الآن. القرار لك.

نظر نبيل إلى الساعة، ثم إلى طريق العودة. قال:

— نثبت القابض في ستين ثانية. إذا لم يثبت نخرج. مالك يبقى مع سليم خلف الحاجز. هادي لا يحرك العجلة.

قالت ليان:

— أوافق بشرط ألا يتغير الضغط أكثر من ثلاثة في المئة.

سأل مالك سليم:

— تستطيع التنفس؟

— كنتفي انخلع، لا رثتي.

— سنخرجك الآن.

— حين يقول نبيل.

كان الألم يجعل صوته أبيض، لكنه لم يستخدم إصابته ليقود بعد أن نقل السلطة. جلس مالك إلى جواره، ثبت رأسه، وقرأ الأرقام كل عشر ثوانٍ.

في الأعلى أدخل هادي مسماراً احتياطياً، ثم ضربه حتى استقر. قال:

— القابض ثابت.

أمر نبيل بنزوله. فحص السلسلة من الأرض، ثم قال:

— نختبر نصف لفة بلا حمل يدوي. هادي على المقبض، وأنا أراقب. إذا طرق مرة نتوقف ونخرج.

تحركت العجلة نصف لفة. لم يصدر طرق.

قالت ليان:

— انتهت نافذتنا الأولى. أستطيع صنع نافذة ثانية بنبضة أقصر من الثالثة، لكن السوق سيتلقى عشرين سنتيمتراً إضافية.

جاء صوت يوسف العابد من الميدان:

— الحافلة البديلة وصلت. بقي سبعة أشخاص على سطح المخزن، ونحن ننقلهم الآن. عشرون سنتيمتراً لا تصل إليهم.

قال فارس:

— هل تؤكد؟

— أوكد موقعهم، لا أعدكم بالماء.

قال مالك:

— ليان؟

— أوصي بالنبضة الثانية. ستمنحنا أربع دقائق.

قال نبيل:

— والفريق يستطيع الانسحاب في دقيقتين ونصف إذا فشل الفتح.

قال مالك:

— نفذوا.

فتحت البوابة الثالثة. تغير ضغط المقياس. قال نبيل:

— هادي، على العجلة. مالك، عدّ الزاوية. أنا أخرج سليم إلى نقطة الملجأ.

قال مالك:

— أساعدك.

— بعد أن تصل البوابة إلى سبع عشرة. هذا دورك.

أمسك هادي المقبضين وحده في البداية. بعد اللفة الثانية انضم إليه مالك. لم يدفع أحدهما أسرع من إيقاع الآخر. كل أربع لفات توقفاً، فحسا السلسلة، وقرأ الزاوية.

عشر درجات.

ثلاث عشرة.

عند الخامسة عشرة ارتفعت المقاومة حتى ظن مالك أن العجلة عالقة من جديد.

قال كريم:

— هناك قفل ثانوي عند خمس عشرة. اسحب المقبض الصغير
أسفل المحور.

وجده هادي. تحركت العجلة.

سبع عشرة درجة.

قالت ليان:

— يكفي. اتركوا العجلة وانتقلوا إلى الملجأ.

أراد مالك أن يدفع لفة أخرى، فقط ليمنح المدينة هامشاً أكبر.
لكن الأمر جاء ممن منحها حق الإيقاف.
ترك المقبض.

أربعة وخمسون شخصاً

حين ضربت الموجة الحافلة، كانت سلمى على الدرجة الثانية تمسك رجلاً لا تعرف اسمه من حزامه.

صرخ السائق أن يترك الجميع المقاعد ويتجهوا إلى الباب الخلفي. مال جسم الحافلة، وانطفأت مصابيحها. في العتمة، اختلط بكاء طفل بصفارة الباب وبصوت الماء وهو يضرب المعدن من الخارج.

كان يوسف واقفاً على الرصيف المغمور، والحبل ملفوفاً حول كتفه. صاح:

— لا أحد يقفز. نمشي على الحبل واحداً واحداً.

قالت زوجة من الداخل إن أم زوجها لا تستطيع الحركة. دخل يوسف الحافلة مع مسعف. وجدا الأم العجوز في المقعد الأخير، وقد انحشر جهاز الأكسجين تحت المقعد. رفعها بالبطانية، لكن الباب الأمامي لم يعد يفتح كاملاً.

كان آدم فوق درج المدرسة يعد الخارجين. طلب منه يوسف أن يكتب الأسماء، لا العدد فقط. قال إن العدد يخبر غرفة العمليات

كم بقي، أما الاسم فيمنع أهل شخص واحد من قضاء الليل وهم لا يعرفون أين هو.

كتب آدم على ظهر إعلان مدرسي. يداه ترتجفان والورق يبتل. «أمانة سالم، أم ثلاثة أطفال. فهد العتيبي. مروان جابر...» بعضهم لم يسمع السؤال، وبعضهم أعطاه اسماً ناقصاً، وبعض الأطفال أجابوا بأسماء أمهاتهم.

عند الشخص الثامن والثلاثين، انقطع الحبل من جهة الحافلة. سقط رجلان في الماء. أمسك أحدهما بحافة السلم، وجرفت هما الموجة الأخرى نحو سيارة مقلوبة. قفز يوسف من الرصيف وربط الحبل القصير حول عمود الإشارة. صاح إلى آدم أن يوقف الناس.

— بقي ستة عشر! قال آدم.

— أعرف.

— الوقت انتهى.

نظر يوسف إلى الحافلة. خلف الزجاج كانت وجوه الناس مصطفة في العتمة، تضيئها هواتف متفرقة.

— الوقت لا يخرجهم، نحن نخرجهم.

وصل فريق ثان بجبال أطول. لم يكن الطريق منظماً كما بدا على خرائط الطوارئ. كان هناك صندوق كهرباء مكشوف، وسيارة تحركها المياه كلها ارتفع المنسوب، وبلاطة رصيف انكسرت تحت قدم أحد المنقذين. استغرق نقل الستة عشر تسع دقائق أخرى.

خرجت الأم العجوز أخيراً. كان جهاز الأكسجين قد توقف، فثبت المسعف قناعاً يدوياً فوق وجهها وضح الهواء وهو يمشي. حين بلغت الدرج، فتحت عينيها وقالت ليوسف:

— حقيقتي.

ضحك رغم نفسه.

— إذا كانت أثقل منك نتركها.

قالت سلمي، وكانت تقف خلفها:

— معي.

رفعت حقيبة صغيرة التقطتها من المقعد. ابتسمت العجوز وأغمضت عينيها.

قرأ آدم الأسماء. ثلاثة وخمسون.

— كان العدد أربعة وخمسين، قال.

عاد الصمت. سأل السائق عن القائمة، ثم تذكر طفلاً كان ينام على المقعدين الخلفيين مع أبيه. الأب خرج مصاباً ولم يستطع الكلام.

سلط يوسف المصباح داخل الحافلة. كان الماء قد بلغ المقاعد. انحشر الباب بسبب السيارة التي اصطدمت بالجسم.

قال قائد الفريق عبر الجهاز:

— لا تدخل. الهيكل غير ثابت.

ربط يوسف الحبل حول خصره.

— أبقوا الشد من الجهة الشمالية.

أمسك آدم بذراعه.

— قلت لي لا أتحرك وحدي.

— وأنا لا أتحرك وحدي. أنتم على الحبل.

دخل من نافذة مكسورة. اختفى نصف جسده، ثم كله. تحركت الحافلة مقدار شبر، وصرخ الرجال فوق الحبل. بعد نصف دقيقة ظهر الطفل بين ذراعيه، يسعل ويضرب الهواء بيديه. دفعه إلى المسعف، ثم خرج.

قرأ آدم الاسم من سوار المدرسة: «زياد ناصر». كتبه تحت الرقم أربعة وخمسين.

لم يصفق أحد. كان الناس أرهق من التصفيق. اكتفوا بفتح الطريق إلى الداخل.

جلس يوسف على الدرجة لحظة. سأل آدم:

— هل أخطأت في اسم؟

راجع آدم القائمة.

— أم نورة قالت اسمها فقط.

— أسألها عن اسمها في الهوية حين تهدأ. لا تجعلها تختفي خلف أمومتها في السجل.

جاء نداء جديد من جهة السوق: انهيار جدار قرب محطة الضخ، وعامل محاصر في الممر الخارجي.

وقف يوسف. كان كتفه ينزف من الزجاج.

قال المسعف:

— تحتاج غرزاً.

— بعد النداء.

نظر آدم إلى الرقم الأخير. أربعة وخمسون اسماً، لا أربعة وخمسون راجعاً. حين تحرك يوسف نحو السيارة، أراد أن يناديه ويطلب منه البقاء. لم يفعل. ظل ممسكاً بالقائمة، غير عالم أنها ستكون آخر ورقة يراجعها الرجل قبل أن يذهب إلى المكان الذي لن يعود منه.

الفصل الرابع والعشرون

إطلاق الماء

وصل الأربعة إلى نقطة الملجأ قبل بدء التسلسل بثلاثين ثانية.

كان نبيل ومالك يحملان سليم بينهما، وهادي يمشي خلفهم ووجهه مغطى بزيت أسود. ثبتوا باب الملجأ، وصلوا خرطوم الهواء، وأعطى نبيل إشارة الجاهزية.

قالت ليان:

— الشرقية عند سبع عشرة فاصل اثنين. البوابة الأولى ثابتة عند اثني عشر فاصل أربعة. نبدأ الثانية إلى ثمانية في المئة.

تحركت الثانية. تغير صوت الجبل؛ صار الماء أعلى من أن يسمعوا بعضهم بلا سماعات.

— ثمانية مستقرة. الثالثة إلى خمسة لثلاثين ثانية.

على شاشة غرفة القرار، خرجت أربع موجات من السد في أوقات مختلفة. حسب البرنامج موضع كل واحدة، لكن ليان كانت تراقب القراءات الحية لا الألوان.

— الشرقية تستجيب. التدفق أربعمئة وخمسون... خمسمئة وعشرة...

قال كريم:

— راقبي الضغط عند الانحناء.

ارتفع ثم استقر.

— الثانية إلى ستة عشر، قالت ليان.

نفذ فارس. بدأ منسوب الخزان يتوقف للهرة الأولى منذ الغروب. لم ينخفض بعد، لكنه صار خطأ أفقيًا.

في السوق، وصلت النبضة الثانية إلى الحافلة المعطلة. رفع الماء عجلاتها الخلفية لحظة، ثم دفعها إلى جدار المخزن. كان آخر سبعة أشخاص ينتقلون عبر سلم إلى الحافلة البديلة.

صرخ يوسف العابد:

— ابتعدوا عن الجدار!

سمع صوت تشقق. دفع أمًا مسنة نحو السلم، ثم رفع طفلًا إلى رجل فوقه. انهار جزء من واجهة المخزن، وسقطت كتلة حجرية بين الحافلتين.

انقطع صوته من جهاز الميدان.

قال قائد الإخلاء:

— فريق السوق، أجيئوا.

جاءت أصوات متداخلة، ثم قال رجل:

— الركاب عبروا. عندنا مصاب تحت الجدار.

لم تسأل غرفة القرار عن اسمه. لم يكن التسلسل يسمح حتى بالحزن بعد.

قالت ليان:

— الثانية إلى أربعة وعشرين. الثالثة تغلق إلى اثنين. لا تلمسوا الأولى.

عند أربعة وعشرين ارتجت البوابة الثانية، ثم ثبتت. ارتفع تصريف القناة الشرقية إلى سبعمئة متر مكعب في الثانية. في ساحة الحافلات المهجورة خرج الماء محملاً بالطين والأخشاب، شق طريقه بين المستودعات، واقتلع سورين قبل أن يدخل مجرى السرو بعد الحي.

انهار سقف مخزن فارغ. جرفت المياه عشرات السيارات. غمرت الطبقات الأرضية في الشارع الساحلي. لكنها لم تصنع الجدار الذي كان النموذج الأول يرسله إلى الحي المنخفض.

قال فارس:

— المنسوب ينخفض. سنتيمتران.

لم يرد أحد حتى ظهر الانخفاض مرة ثانية.

— خمسة سنتيمترات، قال.

جلست ليان، ثم نهضت فوراً لأن الضغط الشرقي قفز.

— خفض الثانية إلى اثنين وعشرين. الآن.

نفذ فارس. عاد الضغط إلى المجال.

داخل الملجأ، بدأ الماء يتسرب من أسفل الباب. كان قليلاً في البداية، ثم وصل إلى أحذيتهم. قال نبيل إن طريق العودة ما زال صالحاً، لكن عليهم الانتظار حتى تمر موجة التوازن.

سأل مالك عن سليم.

— واعي، قال هادي. ويشتم المسمار الذي كسره.

قالت ليان:

— انتهى التسلسل الأول. يمكنكم الخروج بعد ستين ثانية.

اتصل قائد الإخلاء من السوق. كان صوته منخفضاً.

— أخرجنا المصائب. يوسف العابد توفي في الموقع. آخر شخص دفعه إلى السلم حي.

أغمض فارس عينيه. وضع كريم يده على حافة الطاولة. بقيت ليان تنظر إلى الأرقام لأن الماء لم يتوقف احتراماً للخبر.

وصل الصوت إلى مالك في الملجأ. تذكر الرجل من التقارير فقط: قائد قارب، سبعة وثلاثون عاماً، أب لطفلين. لم يعرف بعد أنه كان الشخص الذي وقف أمام بيت كريم، وأنه أعاد الحافلة إلى الطريق، وأن آدم رأى آخر ساعة من حياته.

قال مالك:

— سجلوا اسمه ووقت البلاغ. وأبلغوا أسرته من شخص يصل إليها، لا من رسالة.

ثم سأل:

— هل بقي أحد في السوق؟

— فرق البحث فقط.

— أخرجوهم قبل النبضة التالية.

هبط منسوب الخزان اثني عشر سنتيمتراً، ثم عشرين. صار الخط الأزرق فوق الحافة يتعد ببطء.

فتح نبيل باب الملجأ. خرج الفريق إلى الممر، يحملون سليم على نقالة قابلة للطي. مر مالك أمام التفرع المؤدي إلى موضع موت سامي ولم يتوقف.

عند الباب ش-3 كان المسعفون ينتظرون. أخذوا سليم، وبقي مالك واقفاً لحظة تحت المطر. من الجهة الشرقية دوى الماء في القناة التي نسيها الجميع، ومن المدينة جاءت صفارات إسعاف لا تُحصى.

قال فارس في السماعه:

— الخزان تحت حد التجاوز بثلاثة وأربعين سنتيمتراً. ما زال ينخفض.

لم يقل مالك إنهم نجحوا. نظر إلى النقالة، وإلى البلاغ الذي يحمل اسم يوسف، وإلى الأضواء المنطفئة في نصف المدينة.
قال:

— ثبتّوا التسلسل. لا تغلقوا سبجلاً واحداً. نحتاج أن نعرف من بقي، وما الذي خسرناه.

ثمن الممر

انخفض المنسوب عند السد ببطء لا يليق بما دفعوه لفتحه.

في غرفة القرار، ظهرت أول علامة خضراء بعد دقائق من تحرير العجلة. لم يصفق أحد. كان جهاز الاتصال ما يزال مفتوحاً على سوق الحي، ومنه جاءت أصوات رجال يحاولون رفع كتلة خرسانية.

وصل يوسف إلى الجدار المنهار بعد أن عبر شارعاً لم يعد شارعاً. وجد ثلاثة من عمال الصيانة خلف سياج ملتوي. اثنان خرجا من فتحة ضيقة، والثالث، نبيل عارف، كانت ساقه محشورة تحت عارضة معدنية. فوقهم جزء من سقف المحطة يميل مع كل دفعة ماء.

قال قائد الإنقاذ:

— نثبت السقف أولاً.

أجاب نبيل من الداخل:

— لا وقت. الماء يرتفع خلفي.

دخل يوسف مع رجلين. ثبتوا وسادة رفع هوائية تحت العارضة. لم تعمل المضخة من المرة الأولى. ضربها أحدهم بيده، فصرخ يوسف أن يبعدها عن الماء المكهرب. فصلوا التيار من الصندوق الخارجي، ثم أعادوا الخرطوم.

في السد، كان مالك يسمع التفاصيل من غير أن يرى شيئاً. على الشاشة، تحسن منحى الخزان. في أذنه، كان نفس نبيل يضيق.

قال فارس:

— إذا ثبت التدفق عشر دقائق أخرى، تجاوزنا خطر الحافة.

لم يرد مالك. لم تعد العبارة تعني النجاة للجميع.

ارتفعت العارضة ثلاثة سنتيمترات. سحب المنقذ الأول ساق نبيل، لكنها بقيت عالقة من الحذاء. انحنى يوسف وقطع الجلد بسكينه. عندها صدر من السقف صوت قصير، مثل كسر غصن يابس.

صاح قائد الفريق:

— خروج!

دفع يوسف نبيل نحو الفتحة. أمسكه الرجلان من كتفيه. خرج جسده، وبقي يوسف نصف خطوة خلفه حين سقط الجزء الأول من السقف. انقطع الإرسال لحظة، ثم عاد بصراخ متداخل.

ركض آدم من باب المدرسة رغم أن المسعف أمره بالبقاء. وصل إلى آخر الحاجز ورأى الخوذ تتحرك في الماء. لم يعرف أيها خوذة يوسف. نادى اسمه، فلم يسمعه أحد.

رفعوا الكتلة برافعة السيارة. أخرجوا المنقذ الثاني مصاباً. ثم ظهر طرف سترة يوسف. كان وجهه مغطى بالغبار والماء، والهاتف داخل الكيس في صدره لا يزال يضيء.

حاول المسعفون إنعاشه في الشارع. ضغط أحدهم على صدره، وعد الآخر بصوت عالٍ. واحد، اثنان، ثلاثة. استمر العد أطول مما توقع آدم. في كل مرة توقفوا فيها ليفحصوا النبض، شعر أن المدينة كلها تنتظر الرقم التالي.

وصلت رسالة إلى هاتف يوسف. أضاءت الشاشة تحت البلاستيك: «نامت الصغيرة. ناصر ينتظرك.»

لم يقرأها أحد بصوت عالٍ.

عند السد، قال المرسل:

— أخرجنا نبيل حياً. يوسف العابد لا يستجيب.

أغلق مالك عينيه لحظة. كان يستطيع أن يطلب تحديث المنسوب، أن يبقى في وظيفته، أن يؤجل الاسم حتى ينتهي الخطر. قال:

— ثبتوا وقت التوقف وكل محاولة إنعاش. واتصلوا بأسرته من خلال الضابط، لا من الخبر.

ثم طلب من ليان أن تضع اسم يوسف على سجل القرار إلى جوار أسماء فريق الممر. لم تقل إنها فعلت. ظهر الاسم على الشاشة بعد ثوانٍ.

استمر الماء في الانخفاض.

في السوق، غطى المسعف وجه يوسف. جلس آدم على الرصيف المغمر، والقائمة المبتلة في يده. وصل كريم ووضع كفه على كتفه، لكن الصبي لم يتحرك.
قال آدم:

— دخل مرة أخرى بعد أن أنقذ أربعة وخمسين.

لم يقل كريم إن هذا ما يفعله الشجعان. لم يقل إن موته كان ثمنًا للمدينة. جلس إلى جواره فقط، لأن موت الرجل لم يكن تفسيرًا ولا رمزًا. كان بيتًا سيفتح بابه بعد قليل لضابط يحمل خبرًا، وكوبًا بقي على سيارة الإنقاذ، وطفلين نام أحدهما وانتظر الآخر.

الجزء الرابع

ما بقي بعد الماء

الفجر

طلع الفجر على رواسي من وراء سحابة منخفضة، فلم يعرفه الناس من الضوء بل من تغير لون الماء.

صار السواد بنيةً، وظهرت الأشياء التي أخفاها الليل: سيارة فوق درج مسجد، أبواب محلات معلقة بأسلاكها، ألعاب طفل عالقة في شجرة، وخط من الطين على جدران البيوت يبين إلى أين وصل الخوف.

كان الخزان قد انخفض متراً وسبعة سنتيمترات. ثبتت البوابات في أوضاعها، واستمرت قناة التحويل الشرقية تحمل الماء إلى البحر. لم يعد خطر الانهيار وشيكاً، لكن أحداً في غرفة القرار لم يستخدم كلمة «آمن».

نام سليم تحت التخدير في المستشفى بعد إعادة كتفه وخياطة جرحه. أصيب هادي بكدمة في الساق، وعاد نبيل إلى الممر مع فريق آخر بعد ساعتين لأنه رفض أن يكتب تقريراً عن طريق لم يفحص خروجه بنفسه.

أما قائمة المدينة، فكانت تتغير كل عشر دقائق.

ثلاث وفيات مؤكدة: يوسف العابد، ورجل مسن عُثر عليه في مستودع لم يغادره، وأما جرفتها الموجة الأولى قرب الجسر قبل إغلاق الطريق. سبعة مفقودين. اثنان وأربعون مصاباً نُقلوا إلى المستشفى، ومئات فقدوا بيوتهم أو محلاتهم. عند الثامنة صباحاً عُثر على أربعة من المفقودين أحياء فوق سطح ورشة.

قرأ مالك الأسماء كلها. عند اسم يوسف توقف.

قال قائد الإخلاء:

— كان يستطيع الخروج مع الحافلة الأولى.

— لماذا بقي؟

— لأنه قال إن الناس لا يسمعون من مكبرات الصوت مثلها يسمعون من رجل يعرفونه.

دخل آدم غرفة القرار معها بعد أن سمح الأمن للعائلات بالدخول. كان ثوبه مغطى بالطين، وعلى ذراعه خدش طويل. نهض مالك، لكنه لم يعرف أي سؤال يبدأ به.

اقترب آدم خطوة.

— يوسف مات.

— أعرف.

— كان أمامي قبلها بدقائق.

وضع مالك يده على كتف ابنه. ارتجف آدم تحتها، تخفف قبضته فوراً.

قال:

— كريم قال إنك أنقذت سلمى وساعدت صديقك.

نظر آدم إلى الأرض.

— كريم أنقذنا.

— وأنت فعلت ما استطعت.

كانت البطاقة في جيب آدم. شعر بحافتها تضغط على ساقه. كاد يخرجها. لكن حول أبيه وقف مهندسون لم يناموا، وعلى الشاشة ظهرت صور السوق والباب المفتوح، وفي الممر الخارجي كان صحفيون ينتظرون الرجل الذي سيصفونه بعد دقائق ببطل السد.

قال لها:

— نأخذه إلى البيت.

هز مالك رأسه. أراد أن يقول لآدم إن الحديث لم ينسه، لكنه رأى الخوف في وجهه، واختار جملة أخرى.

— نعم أولاً. سنتكلم حين نستطيع.

رفع آدم عينيه بسرعة، كأن أباه منحه مهلة ثمينة ومخيفة في آن واحد.

بعد خروجهما، دخل رئيس البلدية ومعه فريق تصوير. قال إن المدينة تحتاج صورة تطمئن الناس. طلب من مالك الوقوف أمام الخريطة، ومن فارس وليان أن يقفا خلفه.
قال مالك:

— ليس الآن.

— الناس استيقظوا على خراب. يجب أن يروا من أنقذ السد.
نظر مالك إلى قائمة الموتى.

— إذن صوّروا فرق الإنقاذ وهي تبحث عن المفقودين.

جاء من النافذة البعيدة ضوء شاحب. للمرة الأولى منذ بدأ الليل، سمعوا طائراً فوق المبنى. لم يكن في صوته انتصار. كان مجرد دليل على أن العالم واصل صباحه رغم أن بعض البيوت نقص منها شخص لن يعود.

بطل المدينة

بحلول الظهر، كانت صورة مالك على كل شاشة في رواسي.

اقتطعت من بثه أمام بيت كريم، قبل الجملة التي حمل فيها نفسه المسؤولية. ظهر واقفاً تحت أضواء غرفة القرار، وتحت الصورة عنوان: «كبير المهندسين يتحدى انهيار السد ويفتح المسار المنسي».

لم يفتح مالك المسار وحده، ولم يكن هو الذي اكتشفه، ولم يصل إلى العجلة إلا لأن مراد تذكر التروس وكريم قرأ مخطط سامي وليان بنت التسلسل وسليم قاد الفريق. لكن القصة التي احتاجها النهار كانت أقصر من ذلك.

دخل فارس مكتبه يحمل بياناً أعدته البلدية.

— يريدونك في مؤتمر صحفي عند الرابعة. سيعلمون وسام المدينة، وصندوقاً لتعويض المتضررين باسم «مبادرة مالك نصار».

رفع مالك الورقة.

— ومن اقترح الاسم؟

— المكتب الإعلامي.

— غيروه إلى اسم يوسف العابد، أو اجعلوه بلا اسم.

جلس فارس.

— هناك شيء آخر. البيان يصف ملف سامي بأنه «وثائق تاريخية لا صلة مباشرة لها بالحدث الحالي». يريدون تأجيل نشره حتى انتهاء التحقيق.

— متى يبدأ التحقيق؟

— لم يحددوا.

— إذن يريدون تأجيله حتى ينساه الناس.

قال فارس:

— حجتهم أن نشره الآن يهز الثقة بالهيئة.

— الثقة التي تحتاج إخفاء سبب العطل ليست ثقة.

تردد فارس، ثم قال:

— كنت جزءاً من ذلك أيضاً. بعد وفاة سامي، عرفت أن تقرير مراد اختُصر. قلت لنفسي إن اللجنة أدري، وإن اعتراضاً مني سيبدو دفاعاً عن كريم. ثم حين ترقينا، صار الرجوع أصعب. نظر إليه مالك.

— لماذا تقولها الآن؟

— لأنك ستكتب التقرير، وإذا تركت اسمي خارجه سأعيد الخطأ نفسه.

دفع إليه دفتر المناوبة القديم. كان فيه تسجيل لاتصال من مراد في صباح التحقيق، ورسالة من فارس إلى سكرتير مالك يطلب موعداً له. تحتها ملاحظة: «بناءً على توجيه م. مالك، لا اجتماعات مع فريق المقاتل».

قال فارس:

— كتبت التوجيه ونفذته، ولم أسألك إن كنت تقصد كل شاهد.

أضاف مالك الدفتر إلى صندوق الأدلة.

عند الرابعة ظهر في المؤتمر، لكن لم يقف وحده. أصر أن تجلس ليان وفارس وقائد الإخلاء إلى جواره، وأن يذكر سليم وهادي ونبيل وكريم ومراد. وضعوا كرسيًا خاليًا باسم يوسف العابد، بناءً على اقتراح من رجال الدفاع المدني.

سأله صحفي:

— هل تعتبر نفسك بطل رواسي؟

قال:

— لا. اتخذت قرارات، بعضها صحيح وبعضها يجب أن يُراجع. من اكتشفت تأخر القراءة هي ليان الديب. ومن حفظ مخطط المسار كريم حداد. ومن قاد الممر سليم نادر. ومن مات وهو

يخرج آخر الناس من السوق يوسف العابد. إذا احتجتم اسماً واحداً للعنوان، فلن تفهموا ما حدث.

سأله آخر عن تسجيل سامي. تدخل مسؤول البلدية:

— الموضوع قيد المراجعة ولا علاقة له بسلامة التشغيل الحالية.
قرب مالك الميكروفون.

— له علاقة مباشرة. الخلل نفسه الذي حذر منه سامي قبل خمسة عشر عاماً ظهر الليلة. وسأقدم غداً تقريراً يتضمن الوثائق كاملة، بما فيها دوري في تأجيل ملاحظته.

تحركت همهمة في القاعة. انحنى مسؤول البلدية نحوه وقال من بين أسنانه:

— لم تتفق على هذا.

أطفأ مالك ميكروفونه لحظة.

— صحيح.

ثم أعاده وبدأ يشرح ما تعرفه المدينة وما لا تعرفه، من دون أن يعطيها بطلاً يسهل تعليق القصة كلها على كتفيه.

التقرير

كتب مالك التقرير في الغرفة نفسها التي قال فيها لأول مرة: كنت مخطئاً.

بدأه بالوقت، لا بالدفاع. الرابعة وسبع عشرة دقيقة: ظهور الماء في مجرى السرو. الرابعة وتسع عشرة: تضارب الحساسات. ثم سجل كل قرار ومن اقترحه ومن اعترض عليه، حتى وصل إلى الساعات التي سبقت فتح المسار الشرقي.

في قسم الأسباب، فصل بين ما ثبت وما استنتجه الفريق. أثبت تأخر الخادم الاحتياطي بست دقائق. أثبت أن بلاغ فتحة الكابل أغلق قبل حادث سامي. أثبت حذف الصفحة السابعة عشرة من الملف، لكنه كتب أنهم لا يعرفون من حذفها. أثبت أن فؤاد مرعي أجلّ تسجيل الآلية الشرقية، ولم يكتب أنه قصد إخفاءها حتى يقرر التحقيق ذلك.

ثم كتب عن نفسه:

«دوّن معدّ هذا التقرير، بصفته مراجعاً فنياً آنذاك، قرار تأجيل معايرة الحساس إلى الصباح، رغم تحذير المهندس سامي نصار من

أثر التأخر على تسلسل البوابات. كما وضع له مهلة لإثبات الخلل قبل منتصف الليل في سياق خلاف اتسم بالغضب، من غير أمر مباشر بدخول الممر، لكنه كان يعلم أن القياس المستقل المتاح يوجد في منطقة الخدمة. يرى معد التقرير أن ذلك يمثل تقصيراً منهياً وسوء استخدام للسلطة الإدارية، ويطلب ألا يفصل عن بقية أسباب الحادث ولا أن يُستخدم لإعفاء غيره».

قرأ فارس الفقرة مرتين.

— سيقول محامي الهيئة إنك تكتب إقراراً ضد نفسك.

— هو إقرار بما فعلت.

— وربما بما لم يثبت قانوناً أنه سبب الوفاة.

— لهذا كتبت «من غير أمر مباشر» و«لا يفصل عن بقية الأسباب». لن أقلل دوري كي أحمي نفسي، ولن أكبره كي أحول الندم إلى بطولة.

أضاف ملحقاً عن كريم: تحذيره لسامي، معرفته بالخلل، عدم تصعيده رسمياً، احتفاظه بالصفحة، والاتفاق الذي منعه من الطعن مقابل التعويض. أرسل المسودة إليه.

عاد كريم بتعديل واحد: استبدل عبارة «أُجبر على الصمت» بعبارة «قبل شرط الصمت تحت ضغط مالي وأسري».

كتب في رسالته: «لا تجعل مني بريئاً أكثر مما أنا».
أدرج مالك التعديل.

خصص قسمًا كاملاً لليان، لا بوصفها مساعدة فنية، بل صاحبة اكتشاف وتأليف تسلسل القرار. أدرج اعتراضها على فتح البوابة الأولى وطلبها خمس عشرة دقيقة وصلاحياتها في إيقاف المهمة. ذكر قيادة سليم ونقلها إلى نبيل بعد إصابته. ذكر مراد، وهادي، وفرق المسح والإخلاء.

عند اسم يوسف، توقف طويلاً. كتب الوقائع فقط: موقعه، عدد من ساعدتهم، وقت انهيار الجدار، وسبب الوفاة وفق التقرير الطبي الأولي. لم يكتب أنه «ضحي بنفسه»؛ لم يكن يعرف ما دار في نفسه، ولم يرد أن يجعل موته جملة مريحة للأحياء.

في الصفحة الأخيرة أوصى بتحقيق مستقل، وتعويض المتضررين، ومراجعة كل ملفات الصيانة المؤجلة، وإعادة اسم كريم في السجل المهني مؤقتاً إلى أن يصدر الحكم النهائي، وتعليق صلاحيات مالك التنفيذية إلى حين المراجعة.

قال فارس:

— تستطيع طلب لجنة داخلية أولاً.

— لا.

— وقد ينهون خدمتك.

— أعرف.

— هل هذا ما تريد؟ أن تعاقب نفسك؟

وضع مالك القلم.

— أريد ألا أستخدم منصبي لأقرر العقوبة التي تناسبني. اللجنة تقرر. وأنا أقدم لها ما كنت سأطلبه من أي مهندس آخر.

وقع التقرير عند الثالثة واثنتي عشرة دقيقة بعد الظهر، ووقعت ليان وفارس على الملحق التشغيلي، ووقع سليم من سريريه في المستشفى على إفادته بعد أن قرأها له نبيل سطرًا سطرًا.

أرسل مالك نسخة إلى التحقيق، ونسخة إلى مجلس المدينة، ونسخة إلى أسر الضحايا والمتضررين عبر ممثل قانوني. لم يعد الملف ملك غرفة يمكن أن تنقص منها صفحة.

بعد الإرسال، بقيت علامة صغيرة تدور على الشاشة ثم ظهرت كلمة: «تم».

لم يشعر بالراحة. الحقيقة لا تعيد الماء إلى الخزان ولا الرجل إلى بيته. لكنها منعت الصمت من أن يتحول مرة أخرى إلى نسخة رسمية.

الفصل السابع والعشرون

شهادة فؤاد

وصل فؤاد مرعي إلى مبنى التحقيق في اليوم الخامس مرتدياً بدلة رمادية لا أثر فيها للسفر.

مرّ أمام الصحفيين من الباب الجانبي. في القاعة، وضع حقيبته فوق الطاولة وأخرج ملفاً مرتباً بعلامات ملونة. جلس مالك خلف محاميه، ورأى في ترتيب الأوراق الرجل نفسه الذي عرفه قديماً: لا يترك ورقة بلا رقم، ولا قراراً بلا صياغة تسمح له لاحقاً بأن يقول إنه لم يقصد ما حدث.

بدأ فؤاد بهدوء. شرح ضغط الافتتاح، وتعثر التمويل، وخوف الإدارة من فقد المشروع. قال إن الآلية الشرقية كانت مؤقتة ولم تحصل على اعتماد نهائي، وإن حذفها من سجل التشغيل إجراء إداري لا محاولة إخفاء. عرض رسائل يطلب فيها استكمال الاختبارات بعد الافتتاح.

سأله رئيس اللجنة:

— هل اكتملت؟

— لا.

- من كان مسؤولاً عن متابعتها؟
- المسؤولية موزعة بين إدارة المشروع والتشغيل والصيانة.
- كانت الجملة صحيحة. لهذا كانت خطرة.
- عرض محامي كريم رسالة سامي: «لا تعتمدوا البوابة قبل تكرار النبضة». سأل فؤاد لماذا لم يرفقها بملف التسليم.
- لأنها ملاحظة مهندس لم تعتمد لها لجنة التصميم.
- وهل كانت الملاحظة صحيحة؟
- صحتها اللاحقة لا تغير وضعها الإداري يومها.
- تحرك كريم في مقعده. لم يلتفت إليه مالك.
- جاء دور مالك. سأل المحقق إن كان فؤاد منعه من إيقاف التشغيل ليلة موت سامي.
- لا.
- رفع فؤاد رأسه.
- هل أمرك بإعطاء أخيك موعداً لدخول الممر؟
- لا.
- هل طلب منك رفض شهادة كريم بعد الحادث؟

توقف مالك.

— لم يطلبها بهذه الكلمات. قال إن رواية كريم غير موثقة وإن نشرها سيحطم ثقة الناس بالمشروع. أنا أردت أن أصدق ذلك، فتعاملت معه كأنه حقيقة.

قال محاميه بهدوء:

— أجب في حدود السؤال.

قال مالك:

— هذا هو حد السؤال.

سأله رئيس اللجنة عن طلب استبدال الخادم الأخير. قال إنه أجله لتوفير الموازنة حتى الربع التالي. عرضت ليان سجلها، وأقرت بإغلاق تنبيه المزامنة. شرح فارس أنه وافق على استمرار النظام الاحتياطي. لم يبق في القاعة شخص يستطيع حمل الحادث وحده، ولم يعد ذلك عذراً لأحد.

عند الاستراحة، وجد فؤاد مالك قرب آلة القهوة.

— كان يمكنك أن تقول إن الإدارة ضغطت عليك، قال.

— ضغطت.

— إذن لماذا لم تقلها؟

- قلتها. وقلت إنني استجبت.
- أخذ فؤاد كوباً ورقياً، لكنه لم يملأه.
- سيصنعون منك مثلاً لأنك أعطيتهم اعترافاً نظيفاً.
- ليس نظيفاً.
- تعرف ما أقصد. اللجان تحب الرجل الذي يتكلم عن ضميره.
- يبدو أفضل من ملفات المشتريات.
- نظر مالك إليه. خمسة عشر عاماً وهو يتخيل هذه المواجهة بصوت أعلى. حين جاءت، لم يحتج إلى الصراخ.
- لماذا نزعت الصفحة السابعة عشرة؟
- قلت إنهم لم يثبتوا أنني نزعتها.
- لم أسألك ما أثبتوا.
- حرق فؤاد في الكوب الفارغ.
- وضعتها في ملحق الاختبارات غير المعتمدة. حين أُعيد تجليد الملف، لم يعد الملحق معه.
- هل أمرت بذلك؟
- أمرت بفصل المواد غير المعتمدة. لم آمر أحداً بإتلافها.

— وعندما لم تجدها لاحقاً؟

— كان المشروع قد افتتح، وسامي مات، وكل جهة تبحث عن رجل واحد. لو أعدت الصفحة وقتها لقليل إنني أخفيها. فتركها غائبة.

كانت تلك الجملة أقرب ما وصل إليه فؤاد من الاعتراف. لم يسجلها مالك سرّاً. عاد إلى القاعة وطلب أن تُستدعى المسؤولة عن الأرشفة وأن يُراجع ملحق الاختبارات. سمع فؤاد الطلب ولم يعترض.

في الجلسة المسائية، عثروا على رقم صندوق نُقل إلى مستودع الوزارة. لم تكن الصفحة فيه، لكن سجل النقل أثبت أنها كانت ضمن الملحق عند التسليم الأول. لم يحل الدليل القضية كاملة. ضيق مساحة الكذب فقط.

عند خروجهم، قال كريم للمالك:

— أردت سنوات أن يعترف بجملة واحدة واضحة.

— وأنا.

— لم يفعل.

— لا.

وقفاً عند الدرج. في الخارج، كان المطر قد توقف، لكن الماء بقي في الحفر وعلى حواف الأرصفة.

قال كريم:

— ربما العدالة ليست أن تحصل على الجملة التي انتظرتها. ربما أن تمنعه من كتابة الجملة الأخيرة وحده.

لم يجب مالك. هذه المرة ترك العبارة عند صاحبها ولم يحولها إلى درس لنفسه.

التحقيق

بدأت الجلسات بعد ثلاثة أسابيع في قاعة المحكمة الإدارية القديمة، حيث كانت النوافذ أعلى من أن يرى الجالس منها الشارع.

تعافى السد، ولم تتعاف المدينة. بقيت رائحة الرطوبة في المدارس، واصطفت طلبات التعويض في ممرات البلدية. كل صباح كان فريق جديد ينزل الطين من حي، ويظهر خلاف جديد حول من دفع ومن تأخر ومن يستحق أولاً.

جلس مالك أمام لجنة من خمسة أعضاء. لم يجلس على منصة الهيئة، فقد علقت صلاحياته منذ تسليم التقرير. خلفه جلست مها وآدم وصفية. جلس كريم في الجهة الأخرى مع محاميه، لا إلى جواره ولا ضده.

سأله رئيس اللجنة:

— هل أمرت سامي نصار بدخول ممر الخدمة ليلة وفاته؟

— لا.

— هل توقعت أن يحاول القياس من داخله؟

— عرفت أن جهاز القياس المستقل هناك. لم أفكر حتى النهاية فيما قد يفعله ليلحق بالمهلة التي وضعتها.

— هل تعتبر غضبك سبباً تقنياً للحادث؟

— الغضب ليس صماماً ولا شقاً في الخرسانة. لكنه أثر في قرار إداري: أخرت المعايير، اختصرت الوقت، ثم أغلقت بابي أمام شهادة بعد الوفاة. هذه أفعال قابلة للتحقيق، لا مشاعر أطلب منكم محاكمتها.

سأله عضو آخر عن ليلة الفيضان:

— لماذا دخلت الممر رغم أنك قائد العمليات؟

شرح حاجة القراءة اليدوية، وتشكيل الفريق، وقيادة سليم، وصلاحيه الإيقاف. ثم قال:

— لو عاد بي الوقت، لأعددت مهندساً ثانياً ليتخذ القرار من الموقع بدلاً مني. دخول مسؤول القرار خلق خطراً على استمرارية القيادة حتى مع بقاء فارس وليان في الغرفة.

كانت ليان قد كتبت الملاحظة نفسها. لم يحذفها من التقرير.

استمرت الجلسات سبعة أيام. ثبت أن فؤاد مرعي أغلق بلاغ فتحة الكابل، وأزال الآلية الشرقية من سجل المعدات لتجنب تأخير الافتتاح. لم يثبت أنه نزع الصفحة السابعة عشرة. ثبت أن لجنة

التحقيق الأولى اختصرت شهادة مراد، وأن الهيئة ربطت تعويض كريم بتنازله عن الطعن.

في القرار النهائي، برأت اللجنة كريم من مسؤولية إرسال سامي إلى الممر ومن تهمة التسبب العمدي أو المباشر في وفاته. حملته مسؤولية مهنية عن عدم إيقاف التسليم رسمياً وعدم تصعيد خلل الحساسات، لكنها قررت أن العقوبة التي لحقت به تجاوزت ذلك وحُملت على ملف غير مكتمل.

أما مالك، فقررت اللجنة أن قراره القديم يمثل تقصيراً جسيماً، وأن سلوكه بعد الوفاة ساهم في تثبيت اتهام غير عادل. وأشادت بقيادته الجماعية ليلة الفيضان، لكنها رأت أن النجاح الحالي لا يلغي المخالفة القديمة ولا يعوض عنها.

أُعفي من منصب كبير المهندسين، ومُنِع من تولي قيادة تشغيلية ثلاث سنوات، مع بقاءه خبيراً فنياً إذا قبلت الهيئة نقله إلى عمل غير تنفيذي.

سأله الصحفيون عند الخروج إن كان سيطعن.

قال:

— سأراجع الأسباب القانونية كما يراجع أي موظف حقه،
لكنني لا أظن في حق الناس أن يعرفوا ما فعلت، ولا في رد
اسم من ظلمناه.

لم يقل إنه يستحق كل شيء، ولم يقل إن اللجنة ظلمته. للمرة الأولى
لم يحاول أن يحسم المعنى في جملة واحدة.

عند درج القاعة وقفت صفية تنتظره. قالت:

— خسرت منصبك.

— نعم.

— ولم يرجع سامي.

— لا.

أمسكت ذراعه.

— إذن لا تجعل الخسارتين عذراً لتصير غاضباً من الصدق.

نزل الدرج معها ببطء. خلفهما كانت اللجنة تستعد لفتح ملفات لم
تعد تخص عائلة واحدة، بل مدينة كاملة بنت أمانها طويلاً على
أوراق مؤجلة.

بيت كريم بعد الماء

عاد كريم إلى بيته بعد اثنين وعشرين يوماً من الفيضان.

كان الطين قد ترك خطأ داكماً على الجدار الخارجي، أعلى من ركبة ريم بقليل. انكسر أصيص الليمون، وبقي نصف الشجرة في التراب مائلاً نحو البوابة. في الداخل، انتفخت أبواب الخشب، وصارت رائحة الرطوبة جزءاً من الأثاث.

فتحت نورة النوافذ كلها. قالت إن الهواء أفضل من أجهزة التجفيف التي استأجرتها البلدية، مع أنها لم تكن تؤمن بذلك. كانت تحتاج أن تسمع الشارع بعد الأسابيع التي قضوها في بيت أختها.

وقف كريم في غرفة ريم. الكتب فوق الطاولة، والصور التي رفعها قبل الإخلاء داخل صندوق. على الجدار بقعة مستطيلة نظيفة مكان شهادة المدرسة. لم يعرف أين وضعها.

قالت ريم من الباب:

— في الحافلة سألوني إن كنت أختك.

استدار.

— وماذا قلت؟

— قلت نعم. قبل الفيضان كنت أقول «تشابه أسماء» إذا سأل أحد.

لم يقترب منها. ترك لها المسافة التي تختارها.

— آسف لأنك احتجت إلى ذلك.

— هل كنت تستطيع منعهم؟

كان السؤال أكبر من الاتهام. فكر قبل أن يجيب.

— لم أستطع منع كل ما قالوه. استطعت أن أرفض التنازل، وربما أخسر البيت وقتها. استطعت أن أتكلم أكثر، وربما لم يسمعي أحد. لا أعرف ماذا كان سيغير ذلك. أعرف أن صمتي جعل الأمر أسهل عليهم.

دخلت ريم الغرفة وجلست فوق الصندوق.

— اللجنة قالت إنك لم تكن السبب الرئيسي.

— هذا لا يعني أنني فعلت كل ما يجب.

— نورة تقول إنك لا تعرف كيف تقبل خبراً جيداً.

ابتسم.

— نورة تعرف أشياء كثيرة.

في الظهيرة جاء عامل البلدية لتبديل الباب. كان يريد تركيب باب معدني جديد. طلبت نورة أن يبقوا الباب الأخضر إن أمكن. قال العامل إن أسفله تلف، لكنه يستطيع قص الجزء المتعفن وإضافة قطعة جديدة.

ساعده كريم. نزع المفصلات واحدة واحدة، فوجدت تحتها طبقات من الطلاء: أخضر داكن، أزرق قديم، ثم خشب بلون العسل. قال العامل إن الباب أقدم من البيت على الأرجح. وصل آدم يحمل صندوق أدوات صغيراً. وقف عند البوابة كأنه لا يحق له الدخول حتى الآن.

قالت نورة:

— ادخل. الأرض متسخة أصلاً، لن تفسدها أكثر.

اعتذر عن الحجر الذي وضعه تحت الباب ليلة الفيضان. قال إنه سيعوضهم عن كل ما كُسِر. أجابه كريم أن التعويض تحدده اللجنة والتأمين، لا شعوره بالذنب. ثم أعطاه ورق صنفرة وطلب منه إزالة الطلاء المتقشر.

عملاً صامتين ساعة. لم يقل كريم إن العمل يصلح ما بينهما. لم يكن بينهما ما يحتاج إلى مصالحة كبيرة؛ كان هناك خطأ واعتراف وعمل محدد.

حين انتهاء، أعادت نورة تعليق لوحة الاسم عند المدخل. كانت اللوحة القديمة، وقد نظفت الطين عنها. «كريم حداد» بحروف سوداء صغيرة.

وقفت ريم في الشارع وصورتها. لم تنشر الصورة فوراً. بقيت تنظر إليها ثم قالت:

— أريد أن أكتب شيئاً، لكن كل العبارات تبدو كأنها نهاية فيلم.

قال كريم:

— لا تكتبي شيئاً.

نشرت الصورة وحدها.

في المساء، أعادوا الباب الأخضر إلى مكانه. كان أقصر
سنتيمترات قليلة بسبب القطعة الجديدة، لكنه انغلق من غير أن
يحتك بالأرض. جريته نورة مرتين، ثم تركته مفتوحاً حتى يجف
الطلاء.

لم يكن الباب رمزاً لشيء في تلك الساعة. كان باباً نجا جزؤه
الأعلى، وتعفن جزؤه الأسفل، وأصلحوه بما توفر. وهذا كان
كافياً.

الاسم المستعاد

أعيد اسم كريم حداد إلى سجل المهندسين في صباح بلا احتفال. وصلته رسالة رسمية تعترف ببطلان قرار الشطب، وتعرض تعويضاً عن السنوات التي مُنع فيها من العمل في مشاريع المياه. لم يكن المبلغ يعيد الوظائف التي رفضته، ولا السنوات التي كبرت فيها ريم وهي تسمع اسم أبيها همساً. لكنه لم يرفضه. قال لمحاميهِ:

— رد المال ليس ثمناً للاسم. هو جزء من الدين فقط. عرضت عليه الهيئة منصب مستشار في لجنة تحديث السد. طلب أسبوعاً للتفكير، ثم قبل عقداً محدوداً ينتهي بعد تسليم المخططات، من غير رتبة إدارية.

التقى مالك في المستودع الشرقي حين جاء الاثنان لمراجعة الآلية القديمة. كانت العجلة قد استبدلت مؤقتاً بمحرك جديد، وعلق فوقها لوح يحمل اسم سامي وتاريخ تصميمه. اعترض كريم على اللوح. — سامي لم يكن وحده. مراد وفريق الورشة صنعوها.

قال مالك:

— سنضيف أسماءهم.

— لا تحولوه إلى قديس بعد أن حولتموني إلى مذنب. كان عنيداً
وخرق التعليمات.

— أعرف.

— هل تعرف فعلاً؟

نظر مالك إلى الماء الهادئ خلف شبكة القناة.

— أتعلم أن أذكره كاملاً، لا كما يخدمني.

أعطاه كريم نسخة من قرار رد الاعتبار.

— هذه لك؟

— لا. أردت أن ترى العبارة التي تقول إن الأدلة التي قدمتها
ضدي «لم تكن كافية وفق معيار مهني منصف». كانت الأدلة
ناقصة يوماً أيضاً. الفرق أن الجميع أرادوا النتيجة.

قرأها مالك ثم أعادها.

— أنا آسف.

لم يقل كريم إنه يسامحه.

قال:

— أعرف أنك آسف. هذا لا يخبرني ماذا أفعل بخمس عشرة سنة.

— لا أطلب منك شيئاً.

— جيد.

مشياً إلى الباب. عند العتبة توقف كريمة.

— ريم تقول إن آدم جاء وشكرها لأنها فتحت له البيت ليلة الحشد.

— لم يخبرني.

— ربما لا يزال لا يعرف كيف يخبرك بالأشياء.

أصابت الجملة مكاناً لم تستطع قرارات اللجنة بلوغه.

قال مالك:

— أحاول أن أغير ذلك.

— المحاولة لا تُقاس بما تشعر به حين يصمت. تُقاس بما يلقاه حين يتكلم.

خرج كريم. لم يتصافحا. بقي بينهما حق أعيد، وأذى لا يسقط بقرار، واحتمال بعيد لأن يستطيع رجالان يوماً الحديث عن سامي من غير أن يستخدمه أحدهما سلاحاً ضد الآخر.

في الأسبوع نفسه علقت عند مدخل مركز الدفاع المدني لوحة باسم يوسف العابد. رفضت زوجته أن يكتبوا «بطل الفيضان». اختارت جملة أبسط: «خدم الناس حتى آخر نداء».

تبرع صندوق التعويض، الذي حمل اسمه بعد إصرار مالك، بتعليم طفليه وإصلاح البيوت الأكثر تضرراً. لم يجعل ذلك الفقد أقل. لكنه منع المدينة من استخدام اسم آخر في خطاب ثم ترك أسرته تواجه ما بقي وحدها.

الكرسي الفارغ

عاد مالك إلى غرفة القرار ليجمع أغراضه بعد شهر من الفيضان. كانت الشاشات تعرض منسوباً عادياً. استبدلت الخريطة الملطخة، وأصلحوا المصباح فوق صورة سامي. جلست ليان في الكرسي الرئيس تراجع خطة الأمطار التالية. نهضت حين دخل، فأشار إليها أن تبقى.

— الكرسي لك الآن.

— تكليف مؤقت.

— كل كرسي مؤقت، حتى حين ننسى ذلك.

أخرج من درج مكتبه قلمًا، وصورة عائلية، ونسخة الصفحة السابعة عشرة. ترك النسخة في ملف التدريب بعد أن كتب عليها: «تقرأ مع التقرير الكامل، ولا تفصل عنه». لم يرد أن تصبح اعترافه جملة مبتورة أخرى.

قالت ليان:

— عرضوا عليك وحدة الدراسات.

— سأقبل بعد فترة.

— ستكره ألا تكون صاحب القرار.

— غالبًا.

ابتسمت.

— على الأقل هذه إجابة صادقة.

عند الباب نظر إلى الكرسي الذي جلس فيه سنوات. بدا أصغر حين لم يكن خلفه. لم يأخذ لوحة اسمه. طلب من العامل أن يزيلها ويحتفظ بها في المخزن إلى أن يُعاد استخدام الخشب.

ذهب بعد ذلك إلى بيت أمه. كانت صفية قد فتحت غرفة سامي للمرة الأولى منذ سنوات. أخرجت الكتب من الصناديق، وغسلت الستائر، وتركت النافذة مفتوحة على صوت الماء البعيد في القناة.

في المطبخ بقي كرسي سامي القديم فارغاً عند الطاولة. لم يتخلصوا منه لأنه مكسور من الخلف، ولم يصلحوه لأنه كان دائماً يقول إنه سيصلحه بنفسه.

جلس مالك على الكرسي المقابل.

وضعت أمه بينهما المسجل النحاسي الصغير والمفتاح.

— احتفظ بهما أنت.

— لا أريد أن أصنع من أشياءه محكمة دائمة.

— ولا أنا. لكنني لا أريد أن أخبئها أيضاً.

وضعا المفتاح في صندوق زجاجي صغير مع الصفحة وصورة فريق الإنشاء، وكتبوا أسماء أصحابها وتواريخها. ستنتقل المواد إلى أرشيف المدينة بعد انتهاء القضايا.

قالت صفية:

— كنت غاضبة منك يوم مات، ثم خفت من غضبك أكثر من غضبي. ظننت أن سكوتي يحفظك.

— وأنا ظننت أن اتهام كريم يحفظ سامي من أن يكون قد أخطأ.
— أخوك أخطأ.

— نعم.

قالاها من غير أن يقل حبهما له. كان ذلك جديداً.
رن هاتف مالك. كانت مها.

— آدم يريد أن يراك، قالت. وحدك.
— أين هو؟

— في البيت. منذ قرار اللجنة وهو يحمل البطاقة في جيبه وينقلها
من ثوب إلى ثوب. أظن أن الوقت جاء.

نظر مالك إلى الكرسي الفارغ. تذكر كيف كان سامي يدخل
الكلام من منتصفه لأن أخاه لا يمنحه الصبر للبداية، وكيف
عاش مالك خمسة عشر عاماً مع نهاية لم يسمع أولها.

قال:

— أنا قادم.

ترك الكرسي في مكانه. لم يجلس عليه ليملاً غياب سامي، ولم يرفعه إلى المخزن. بعض الفراغات لا تعالج بأن تتظاهر أنها لم تكن، بل بأن نترك لها اسماً ولا نجعلها تبتلع بقية البيت.

سر آدم

كان آدم ينتظر في غرفة الجلوس، والبطاقة فوق الطاولة. عرفها مالك قبل أن يقترب. كانت صورة سامي باهتة تحت شريط لاصق قديم، واسمه على الخلف أوضح من شعار الهیئة. جلس أمام ابنه. لم يمد يده إلى البطاقة. قال آدم:

— أخذتها من درج مكتبك قبل يومين من الفيضان. شعر مالك بالغضب يأتي سريعاً كما عرفه دائماً: حرارة في الوجه، ضيق في الفك، ورغبة في سؤال يبدأ بـ«كيف تجرؤ». وضع كفيه على ركبتيه حتى لا تتحول يداه إلى إشارة تخيف الصبي قبل أن يكمل. قال:

— تابع.

شرح آدم أنه أراد التصوير من منصة محطة الضخ، وأنه ظن البطاقة لوالده، وأن عمر صديقه كان معه. أخبره عن الباب الذي

فتح، وعن الحجر الذي وضعه حتى لا ينغلق، وعن الحقيبة التي سقطت والصفارات التي بدأت.

توقف عند الحجر.

قال مالك:

— هل تركت الباب مفتوحاً؟

لم يجب آدم مباشرة. بدأ صدره يرتفع بسرعة.

— نسيت الحجر. حين عدنا كان الماء قد لوى الباب. دخل منه إلى النفق. فريق البحث كاد يموت. ومروان...

— نجا مروان.

— لأنهم دخلوا من طريق آخر. لو قلت لك من أول اتصال...

توقف صوته.

كان أمام مالك الآن خطأ حقيقي، لا اعترافاً صغيراً يمكن تهوينه. دخول غير مصرح به، بطاقة مسروقة، باب خدمة ترك مفتوحاً، وكذب أثناء طوارئ. كان لا بد أن يخضع للتحقيق، وربما لتعويض وعقوبة مدرسية وإدارية. الاستماع لا يعني أن يقول له إن شيئاً لم يحدث.

سأل:

— من يعرف؟

— كريم سألني. لم أقل نعم. أمي تعرف أن هناك شيئاً، لا التفاصيل. عمري يعرف أننا دخلنا، لكنه لا يعرف أنني ثبت الباب.

— وهل وفاة يوسف العابد مرتبطة بالباب؟

رفع آدم رأسه مدعوراً.

— لا أعرف.

— وفق التقارير، لا. موجة السوق جاءت من نبضة البوابة الثالثة، لا من محطة الضخ. لا تحمل نفسك ما لم تفعله، ولا تسقط ما فعلته.

بدأ آدم يبكي بصمت. لم يحاول مالك منعه. تذكر كل مرة قال فيها لسامي «اختصر»، وكل مرة طالب ابنه بالجواب قبل أن يعرف السؤال كاملاً.

قال آدم:

— ستبلغ الشرطة؟

— سأبلغ لجنة التحقيق ومحامي الأسرة. وسنذهب معاً. سنعرف الضرر الذي سببه الباب، وستحمل ما تقرره الجهة المختصة.

ارتجف فم آدم.

— هل ستطردني من البيت؟

نظر مالك إليه طويلاً. لم يفهم أولاً كيف استطاع ابنه أن يتخيل ذلك، ثم فهم أن الخوف لا يحتاج وعداً صريحاً، يكفي أن يعيش قرب غضب لا يعرف أين يتوقف.

قال:

— لا.

— لكنك غاضب.

— نعم. وغضبي ليس حكماً عليك، ولا يعطيه الحق أن يمنعك من الكلام.

مد يده إلى البطاقة وقلبها. مرر إصبعه فوق اسم سامي.

— هل هذه كل القصة؟

نظر آدم إلى الممر حيث وقفت أمه بعيداً، ثم عاد إلى أبيه.

— لا. هناك أشياء قلتها لعمر، وأشياء فعلتها بعد أن اتصلت بي. وهناك سبب جعلني آخذ البطاقة أصلاً.

كان مالك متعباً من اللجان والتقارير والقصص التي تبدأ بعد حذف ما يخرج صاحبها. لكنه لم يكن متعباً من ابنه. أو لم يرد أن يكون.

أعاد البطاقة إلى الطاولة، وترك يديه مفتوحتين.

من البداية

قال مالك:

— ابدأ من البداية. سأسمعها كلها.

بدأ آدم من قبل البطاقة بأشهر.

حكى عن مشروع المدرسة الذي طلب من الطلاب تصوير مكان مهجور في المدينة، وعن رغبته في اختيار محطة الضخ لأن زملاءه لا يعرفون إلا أن أباه «رجل السد». حكى أنه أراد صورة لا يملكها غيره، وأنه حين طلب من مالك زيارة المحطة قال له أبوه: «ليس عندي وقت لهذه الأشياء» من غير أن يسأل عن المشروع.

قال مالك:

— أذكر.

ثم سكت. لم يقل إنه كان مشغولاً، مع أنه كان كذلك. لم يشرح أن اجتماعاً طارئاً انتظره. كان دور التبرير سيأتي بعد أن تنتهي القصة، إن كان يحتاج أن يأتي.

حكى آدم عن فتح الدرج بحثاً عن مفتاح سيارة، وعن رؤية البطاقة، وعن ظنه أنها قديمة لا تعمل. حكى كيف تفاخر أمام عمر بأنه يستطيع دخول أي مبنى تابع للهيئة، وكيف ضحكا حين أضاء القارئ باللون الأخضر.

حكى عن الحجر. وعن الحقيبة. وعن كذبه في المكالمات لأن اسم الحي سيجعل أباه يغلق كل باب للكلام. حكى أنه أغلق الهاتف ثم كره مالك في تلك اللحظة، وأنه بعد دقائق تمنى لو يسمع صوته ولو كان غاضباً.

حكى عن البيت ذي الباب الأخضر، وعن كريم، وعن البطاقة التي سقطت، وعن سؤاله عند محطة الضخ. قال إنه كذب على كريم أيضاً. ثم حكى كيف وقف أمام بيته ليدافع عنه، لا لأنه شجاع، بل لأنه أراد أن يفعل شيئاً جيداً يضعه فوق الشيء السيئ.

قال مالك:

— العمل الجيد لا يحو الخطأ.

انكمش آدم.

أكل مالك:

— لكنه لا يصبح كذباً بسببه أيضاً. نكتب الاثنين.

تنفس الصبي وعاد إلى كلامه.

استغرق الأمر ساعة. لم تكن القصة في طولها، بل في عدد المرات التي توقف فيها آدم منتظراً انفجاراً لم يأت. كان مالك يسأل عن الوقت والأشخاص والباب، ثم يعود إلى الموضع الذي توقف عنده ابنه. مرة واحدة ارتفع صوته حين عرف أن الصبيين قفزا بين السطحين. توقف، اعتذر عن الصوت، وطلب منه المتابعة.

حين انتهى، أحضرت لها الماء وجلست معهم. كتبوا ما يجب فعله في الصباح: الاتصال بالمحقق، تسليم البطاقة، إبلاغ أسرة عمر، ومراجعة تقرير محطة الضخ. قال آدم إنه سيعمل في إصلاح المدرسة مهما قرروا. قال مالك إن العمل التطوعي لا يستبدل العقوبة، لكنه قد يكون جزءاً من رد ما يستطيعون رده.

سأل آدم:

— هل ستثق بي مرة أخرى؟

قال مالك:

— ليس لأننا تكلمنا مرة. سنبنينا بما تفعله بعد اليوم. وأنا أيضاً سأبني شيئاً فقدته منك.

— ماذا فقدت؟

— أن تأتي إليّ قبل أن يصير الخطأ كارثة.

خارج النافذة، جرى ماء السرو في المجرى الذي أعيد فتحه. كان أضيق من النهر القديم، لكنه لم يعد مخفياً تحت الطرق.

وحين سأل آدم إن كان يستطيع أن يعيد القصة غداً أمام اللجنة من غير أن يقطعه أحد، قال مالك:

— سأكون إلى جوارك. ابدأ من البداية.

الفصل الثاني والثلاثون

بعد مئة يوم

بعد مئة يوم من الفيضان، عاد الطلاب إلى مدرسة الحي المنخفض.

كانت الرائحة الجديدة للطلاء أقوى من رائحة الطين، لكن آثار الماء بقيت ظاهرة في الملعب نخط باهت على السور. زرع المتطوعون أشجاراً صغيرة مكان التي اقتلعت، وعلقوا عند البوابة لوحة بأسماء من ماتوا. لم يضعوا تحت الأسماء وصفاً.

كان آدم ضمن فريق إصلاح غرفة المعدات. لم تعد المدرسة تطلب منه ذلك؛ أنهى الساعات التي قررتها اللجنة قبل أسبوعين. واصل المجيء يوم السبت لأن عمر احتاج إلى إنهاء فيلهمما عن عودة النهر، ولأنهما اتفقا على ألا يصورا أحداً من غير إذنه.

دخل مالك بعد الظهر يحمل صندوقاً من العدسات القديمة تبرعت به الهيئة. لم يعد رئيساً لها. بطاقته الجديدة تحمل اسمه فقط، وتحت الاسم: «مهندس مراجعة». لا تسمح له بدخول غرف التشغيل من غير مرافق.

قرأ آدم البطاقة.

— هل يزعجك ذلك؟

— أحياناً.

— قلت إن العقوبة عادلة.

— وعداتها لا تجعلها سهلة.

وضع الصندوق على الطاولة. كان عمر يختبر الصوت في الزاوية،
فرفع يده تحية ثم تركهما.

عرض آدم على أبيه مقطعاً من الفيلم. ظهر المجرى قبل الماء، ثم
وجوه الناس عند الصفارات، ثم قوائم الأسماء في مركز الإيواء. لم
يستخدموا صورة جثمان يوسف ولا لحظة انهيار الجدار. ظهرت
زوجته سارة في مقابلة قصيرة تتحدث عن الكوب الذي لم يعد
به، وعن ناصر الذي ما زال يضع ضوء الممر مفتوحاً.
قال مالك:

— لم تضعوا مشهد البوابة.

— لا نعرف إن كان فتحها أنقذ أكثر مما أضر. ليان قالت إن
التقرير لا يحسم ذلك.

— جيد.

نظر آدم إليه.

— لأننا حذفناه؟

— لأنكم تركتم ما لا تعرفونه بلا ادعاء.

أغلق آدم الحاسوب.

— اللجنة ستنشر إفادتي كاملة الأسبوع القادم.

— أعرف.

— قد يعود الناس للكلام.

— سيعود بعضهم.

— وأنت؟

فهم مالك السؤال. هل سيشرح للناس أن ابنه لم يقصد؟ هل سيستخدم نفوذه القديم كي يجعل الخطأ أصغر؟ جلس على المقعد المقابل.

— سأقول ما أعرفه إذا سُئلت. لن أطلب منك أن تكون أقل مسؤولية، ولن أسمح لهم أن يجعلوك مسؤولاً عما لم تفعله.

هز آدم رأسه. لم يبدو مرتاحاً، لكن الخوف لم يغلق وجهه كما كان يفعل.

في الخارج، كان كريم يساعد العامل في تثبيت لوحة قياس جديدة عند مدخل المجرى. دعهم ليان لرؤيتها. صار لكل حساس ختم

زمني ظاهر، ويستطيع أي موظف مقارنة القراءة الرقمية بالميكانيكية من شاشة واحدة. على اللوحة سطر صغير: «آخر اختبار يدوي»، وتاريخه لا يمكن إغلاقه بلا توقيعين.

قال فارس:

— جعلتها مزجة جداً.

أجابته ليان:

— الأنظمة الآمنة تزجج من يريد أن ينتهي بسرعة.

كانت أمها تقف بعيداً مع هناء، تتكىء على عصا. قدمتهما ليان للفريق للمرة الأولى. لم تذكر أن خوفها عليهما دفعها إلى القرار الصحيح متأخراً، لم تحتج إلى تحويل حياتها إلى حجة.

عند الغروب، مروا بمركز الدفاع المدني. وجدوا ناصر ابن يوسف يلعب خوزة أبيه داخل خزانة زجاجية. لم يسأله مالك إن كان نفحوراً. ساعده فقط في رفع الرف حين مال، ثم خرجوا.

في الطريق إلى البيت، توقف مالك وآدم عند الجسر القديم. عاد الجرى ضيقاً، لكنه لم يجف. جرى الماء في وسطه بلون صافٍ، وعلى الضفتين بقيت خطوط الطمي فوق الجدران.

قال آدم:

— هل تبدأ الرواية من هنا؟

— أي رواية؟

— الفيلم. نفكر أن نسميه «حين عاد الماء».

نظر مالك إلى الصبية الذين ابتعدوا هذه المرة عن حافة المجرى. لم يقل إن الاسم جميل أو إن سامي كان سيحبه. ترك الماء يسمع.
قال:

— ابدأ بما رأيت، ثم قل بوضوح أين لم تر.

ثبت آدم الكاميرا على الحامل. لم يطلب من أبيه أن يقف أمامها. جلس مالك على السور المجري خارج الإطار، وبقي هناك حتى انتهى التصوير.

انتهى